

الصلاة في العصر الجاهلي قراءة دلالية في اللغة والنصوص الجاهلية

د. ليلى توفيق أحمد العمري *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٨/٣/١٩

تاريخ القبول: ٢٠٠٩/٢/٢٢

ملخص

يلقي البحث ضوءاً على جانب مهم من جوانب الحياة الدينية في العصر الجاهلي، وتعود أهمية البحث في هذا الجانب إلى الكشف عن عدم وجود سلطة دينية توجه العرب إلى شعائر الدين عندهم، بحيث تكون شعائر واحدة لهم جميعاً، لاختلافهم في أمور دينهم، وعدم خضوعهم لدين واحد. وذلك من خلال التعرّض لدراسة الصلاة في العصر الجاهلي دراسة استقت مادتها من الشعر الجاهلي، واستعانت بالروايات والأخبار التي رواها الرواة العرب في كتب الأدب واللغة والمعاجم والتاريخ والتفسير والسيرة النبوية.

واعتمد الباحث في دراسته لموضوعه على معرفته بالصلاة وأفعالها ومستلزماتها في الإسلام، لعدم وضوح الصلاة الجاهلية في الموارد الكلاسيكية التي تحدثت عنها، ولقلة الأشعار والأخبار التي وردت فيها، وسلك كل ما يمكنه أن يدل - في تقسيمه لموضوعات بحثه - على صلاة العربي الجاهلي، فابتدأ بالحديث عن الأصل في الاشتقاق اللغوي للصلاة الذي يرد إلى أصل أو ي أو يائي، وعن معناها عند اللغويين والمفسرين، وكان غرضه من هذا الحديث أن يستدل على معرفة العرب بالصلاة في العصر الجاهلي في أصل وضعها اللغوي، في قول العلماء: صلي بمعنى دعا، دلالة قادته إلى الحديث عن أشكالها التي تبين له أنها أربعة أشكال، هي: الصلاة دعاء، وصلاة الصبح، وصلات الضحى والعشاء، وصلاتهم حول البيت مكاء وتصديّة.

وحاول أن يستدل عليها كذلك بدراسة دلالة المفاهيم الدينية الأخرى على الصلاة، وهي الركوع والسجود، واللفظتان وإن استعملتا في العصر الجاهلي بمعنى الانحناء - مع أن السجود أشد انحناء من الركوع - إلا أن دلالتهما على الخضوع لم يقصد به خضوع المرء المسلم في أدائه صلاته، الذي يرافق خشوعه فيها بحيث يظهر منه في الجوارح سكون وتواضع، وإنما هو مجرد حالة من الذل والضعف التي وُطِّقت في غير هذا الاستعمال، وتوظيفها فيهما - أي في الركوع والسجود - إنما هو لحكمة اقتضتها ظروف الحياة لتحيا اللفظتان (الركوع والسجود) - والصلاة كذلك - في وجدان العربي الجاهلي، لإعداده من جهة وتهيئته لتقبل المرحلة القادمة من جهة أخرى. والشأن نفسه يقال في الصلاة في دلالتها على الدعاء، حتى إذا جاء الإسلام أصبح الدعاء جزءاً منها، وأضيف إليها الركوع والسجود، وقد صفت من معانيها الجاهلية، وخُصت الصلاة وأفعالها له، واستقرت مسيرتها عنده، ومن ثمّ تعيّن معناها فيه دينياً، فاختصت به.

كما حاول أن يستدل عليها بما أسماه مستلزمات الصلاة من نصوص وأخبار تدل على مكان الصلاة، وتبين أن العرب توضعوا للشعر العالي الرفيع، وأنهم كانوا يعرفون الخشوع وإن لم يحمل المعنى الديني التعبدي، ويعرفون التسبيح في دلالاته على الصلاة والدعاء.

والباحث إذ يعرض لموضوعات بحثه على هذا النحو؛ فإنه يحقق غرضه منه بالمناقشات المنطقية التي تقوم على الحجّة والإقناع.

الكلمات الدالة: الصلاة، الركوع، السجود، الخشوع، التسبيح، الوضوء.

* كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الهاشمية.
حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

Abstract

**Prayer in Pre-Islamic Times (Jahili- or Age of Ignorance)
A Semantic Reading of Language and Pre-Islamic Texts**

This study sheds light on an important aspect of religious life in the Pre-Islamic era. The significance of this study lies in its elucidation of the fact that there was a lack of a religious authority guiding the Arabs insofar as religious rituals, whereby the latter would be uniform for all of them, given the religious differences existing among them, and the fact they did not follow a single religion. The aim of the study is achieved by studying prayer in Pre-Islamic times relying on the texts of Jahili (Pre-Islamic) poetry, and utilizing stories and reports narrated by Arab narrators in works of literature, philology, lexicographical works, history, works of Qur'anic exegesis (tafsir ar.) and the Prophet's biography (Al-Sira Al-Nabawiyyah ar.).

The author relies in his research on his knowledge of prayer, pillars and requires as prescribed in Islam, due to the fact that prayer in Pre-Islamic times is unclear in the classical sources that address it, and due to the dearth of poetry and reports that deal with it, and he pursues all that may indicate- in his classification of the topics of his study- the (form) of the prayer of the Pre-Islamic Arab; hence, he addresses the etymology of the term prayer (Al-Salat ar.) which is rooted in the vowels (waw or ya'a ar.), and its meaning according to the linguists and exegetes. His aim from this discussion is to shed a light on the knowledge of the Arabs of prayer in Pre-Islamic times insofar as its linguistic features, based on the treatment of the scholars of this matter: he prayed in the sense that he supplicated, led him to discuss its forms which, it became evident to him, were four in number, namely: prayer as supplication, dawn prayers, the prayers of the forenoon and evening, and their prayer around the Ka'ba by clapping and whistling.

He, moreover, attempts to expound it by studying the significations of the other religious concepts insofar as prayer, namely bowing and prostration, and the two terms were in fact used in Pre-Islamic times to denote bowing- even though prostration is indicative of greater humility than bowing- their denotation of submission did not mean the submission of the Muslim person in his performance of prayer, which is accompanied by veneration where his bodily parts evince tranquility and modesty, but is rather a condition of weakness and meekness which were utilized in other than this usage, and their utilization in them- that is bowing and prostration- were necessitated by the laws of the Universe, so that the two terms (bowing and prostration)- and likewise prayer- become alive and present in the consciousness of the Pre-Islamic Arab, in order to prepare him on the one hand, and to ready him for accepting the subsequent phase on the other. The same may be said of prayer (Al-Salat ar.) in its denotation of supplication (du'aa ar.), whereby with the advent of Islam supplication became a part of it, and became added to bowing and prostration; it became purified of its Jahili significations, and prayer became distinctively Islamic, and its trajectory became fixed for him, and hence its religious signification became clearly defined for him.

He likewise expounds the prayer in Pre-Islamic times by reference to what he termed the requirements of prayer in terms of texts and reports that are indicative of the location of prayer, and which show that Pre-Islamic Arabs performed ritual ablution when fine poetry was recited, and veneration (khushu'u) was known to them, even though it did not carry the religious signification relating to worship, and they used to know glorification (tassbih ar.) as denoting prayer and supplication.

The author, while expounding the topics according to the foregoing, achieves his aims by means of logical elaboration that is rooted in rational argument and persuasion.

Keywords: Pray, bowing, prostration, veneration, glorification, ritual ablution.

المقدمة:

لم تحظ الصلاة في العصر الجاهلي بعناية الباحثين والمتخصصين في الأدب الجاهلي، في دراستها دراسة تلقى الضوء على جانب من جوانب الحياة الدينية في هذا العصر، سوى إشارة بسيطة إليها تقدر بأقل من نصف صفحة وردت في كتاب "قريش قبل الإسلام: دورها السياسي والاقتصادي والديني" لعواطف أديب علي سلامة^(١)، في حديثها عن صلاة العرب حول البيت أنها كانت مكاءً ونصنية، وعن معرفتهم صلاة الضحى في الخبر المتعلق بالأسقع اللثي^(٢). والمادة التي كتبها فنسك عن "الصلاة" في دائرة المعارف الإسلامية وتعليق أمين الخولي عليها^(٣)، وسواء هذه المادة أو التعليق عليها فإن الحديث فيهما كان مما ورد في متون الفقه الإسلامي، ولا يمت إلى الجاهلية بسبب، اللهم إلا إشارة واحدة نفي فيها فنسك ظهور كلمة الصلاة في الآثار الأدبية السابقة للقرآن الكريم، ومن ثم صححه فيها أمين الخولي بشاهد من شعر الأعشى ذكرناه في هذا البحث في الموضع الذي يتصل به. فإذا استثنينا هاتين الدراستين وجدنا ثلاث دراسات تحدثت عن الصلاة حديثاً متفاوتاً ومختلفاً في آن، كان أفضلها حديث عودة خليل "أبو عودة" في كتابه "التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم"، فقد درس في الفصل الخامس منه "مصطلحات في أركان الإسلام الخمسة"، ذكر منها ما يعنينا في هذا البحث الصلاة والوضوء والركوع والسجود والخشوع^(٤)، معتمداً في كتابه كله على منهج مطرد يدور حول دراسة المعنى اللغوي للكلمة ثم المعنى الاصطلاحي لها في القرآن الكريم، ناظراً في وجه التطور الذي لحق بها في سيرها من الجاهلية إلى استعمال القرآن الكريم، من حيث تخصيص الدلالة أو تعميمها أو نقلها عن طريق المجاز، مستشهداً على ما يقول بشواهد من الشعر الجاهلي، وبعض الشواهد لشعراء مخضرمين، وشواهد كثيرة كثيرة واضحة من آيات الذكر الحكيم^(٥)، وإن يكن الباحث قد اعتمد على المعاجم اللغوية في دراسة المعنى اللغوي أو احتج بشواهد من الشعر الجاهلي، إلا أن الهدف الذي يسعى إليه في كتابه من دراسته لهذه الموضوعات وغيرها هو بيان أثر الناحية الدينية في تطور الدلالات في ألفاظ اللغة بحيث اختصت بالإسلام، في محاولته لإثبات دليل جديد على إعجاز القرآن الكريم من وجه التطور الدلالي^(٦). ويأتي بعده جواد علي في كتابه "تاريخ الصلاة في الإسلام"، وكان تحدث عنها بإيجاز شديد، فقد عرض لتعريفها في اللغة، ومفهومها في الإسلام، مشيراً إلى أصولها الآرامية، ومن ثم إلى استعمال اليهود لها، متوقفاً عند سورة الأنفال^(٧) وبعض الأخبار التي تدل على وجود الصلاة عند الجاهليين الوثنيين - في تعبيره -

(١) سلامة، عواطف أديب علي، قريش قبل الإسلام: دورها السياسي والاقتصادي والديني، دار المريخ، الرياض، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص: ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) انظر هذا الخبر في متن البحث في الحديث عن هذه الصلاة.

(٣) بربل، أ. جي، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، ١٩٩٥م - ١٩٩٧م، ج ٢: ٦١٠٥ - ٦١٣٧.

(٤) انظر "الصلاة والمصطلحات التي تلحق بها"، و"الوضوء والتيمم"، و"الركوع"، و"السجود، المسجد: المسجد الحرام، المسجد الأقصى"، و"الخشوع" في: "أبو عودة"، عودة خليل، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، ط ١، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص: ١٨١ - ١٨٣، ١٨٥ - ١٨٧، ١٨٩ - ١٩٢، ١٩٦ - ١٩٩، ٢٠١.

(٥) انظر حديثه في المرجع السابق: ١٥ (المقدمة).

(٦) انظر المرجع السابق: ١٦ (المقدمة).

(٧) الآية: ٣٥.

كالصلاة التي عُرِفَتْ عند أهل مكة، والصلاة على الميت، والأخبار التي تذكر معرفة قريش بصلاة الضحى ولم تكن تنكرها، صاحباً مفهومه للصلاة على الأدعية التي كان يرددّها الجاهليون في طوافهم حول الصنم، والتي كانوا يصلّون (يدعون) بها لتحقيق الآلهة لهم حاجاتهم، وتساعدتهم في إجابة مطالبهم في صلواتهم تلك^(١). ويتلوه محمد نعمان الجارم في كتابه "أديان العرب في الجاهلية"، فقد تحدّث عن وجود الصلاة في العرب قبل الإسلام معتمداً في استشهاده على خبرين اثنين، يتصل الأول بصلاة أبي ذر - رضي الله عنه - أنه كان يصلي قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم^(٢)، ويتصل الثاني بصلاة زيد بن عمرو بن نفيل في استقباله الكعبة، وما كان يقوله حينئذٍ^(٣). وتأتي بعد ذلك نتف متفرقة في كتاب "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" لجواد علي تحدّثت في مواضع قليلة جداً عن صلاة العربي الجاهلي الوثني، وتحدّثت أكثر من ذلك عن صلاة غيره من أصحاب الديانات الأخرى من أهل الكتاب ومن غيرهم^(٤). ولذلك جاء هذا البحث يكشف جوانب خبيثة في بطون الكتب عن الصلاة في العصر الجاهلي، ويركّز في الحديث عنها على صلاة العربي الجاهلي الوثني، ويستعين في هذا الحديث بصلاة غيره من أصحاب الديانات الأخرى في إضاءة بعض الجوانب المتعلقة بها، أو إيجاد مثيل لها عندهم دون الإسراف في تتبعها التزاماً من الباحث النقيّد بموضوعه.

إن المجال الذي ينكّىء الباحث عليه في الحديث عن هذا الموضوع هو الشعر الجاهلي، ولكنه كان يستأنس بالروايات والأخبار التي رواها الإخباريون العرب حيث يعزّ وجود نظائر لها في الشعر، وهي تتفرّق في كتب اللغة والأدب والتاريخ والتراجم والتفسير والسيرة النبوية، وتذكر في هذا الصدد المعاجم اللغوية وكتب اللغة التي أفادت - في تفسيرها اللغوي لـ "الصلاة" وبيان أصلها في الاشتقاق - في الاستدلال على معرفة العرب بالصلاة في العصر الجاهلي.

ونظراً لقلة الشعر الديني عامة الذي وصل إلينا، والذي يتحدّث عن الصلاة الجاهلية خاصة^(٥)، وندرة الأخبار التي تتصل بها والتي وردت في الموارد الكلاسيكية، ولعدم معرفتنا - في ضوء ذلك - بهذه الصلاة، فقد انتظم الحديث عن الصلاة الجاهلية وتعيين موضوعاتها من معرفتنا بالصلاة وأفعالها في الإسلام، ولكن قبل البدء بالحديث عنها وفق الرؤية المشار إليها، كان لا بدّ للباحث من أن يعالج الصلاة معالجة لغوية في شقين، يذكر الشق الأول الأصل في اشتقاقها اللغوي الذي يردّ إلى أصل ولوي أو يائي، ويذكر الشق الثاني الأصل في معناها اللغوي الذي استعمله العرب وورد في أشعارهم وهو الدعاء، والغرض من هذه المعالجة اللغوية أن نستدل على معرفة العرب بالصلاة في أصل وضعها اللغوي، إذ سمّيت الصلاة بهذا الاسم من باب المجاز المرسل بإطلاق اسم الجزء على الكل، إلى أن استقام معناها في الإسلام، فخلّصت هذه اللفظة له واختصت به، معرفة قادته الباحث إلى الحديث عن أشكال الصلاة في العصر الجاهلي، التي يقف على رأسها الصلاة بمعنى الدعاء، مبيّناً المجالات التي استعملت فيها

(١) علي، جواد، تاريخ الصلاة في الإسلام، ط١، منشورات الجمل، بغداد، ٢٠٠٧م، ص: ١٢ - ١٩، ٢١. في مواضع متفرقة.

(٢) فقد ذكر أنه كان يصلي قبل أن يقدم على النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين، وفي رواية سنتين قبل مبعثه عليه السلام.

(٣) الجارم، محمد نعمان، أديان العرب في الجاهلية، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٦م، ص: ٩٠ - ٩١ (باب:

الطهارة، الصلاة، الزكاة، الصوم، الاعتكاف)، وانظر تلبية زيد كذلك ص: ٦٨ في حديثه عن حجّ أهل الجاهلية.

(٤) انظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٣، مكتبة النهضة، بغداد، ودار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، ١٧٧:٦،

٣٣٧ - ٣٣٨، ٣٤٤، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٦١، ٦٤٦ - ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٧٣، ٦٧٤.

(٥) انظر إجلتنا في إحدى الحواشي إلى الكتب التي تحدّثت عن الأسباب التي أدت إلى قلة الشعر الديني الذي وصل إلينا، في حديثنا عن "صلاة الفجر".

هذه اللفظة لتدلّ على هذا المعنى، وصلاة الصبح، وصلاتنا الضحى والعشاء، والصلاة التي ذكرها القرآن الكريم عند البيت أنها مكاء وتصدية.

ثم تحدث عن الصلاة في المفاهيم الدينية الأخرى، ودلالة هذه المفاهيم عليها، وهي التي تُعرّف في الإسلام بأفعال الصلاة، وتتمثل في الركوع والسجود. وقد وجد الباحث أن هاتين اللفظتين استعملتا في الجاهلية بمعنى واحد - أو متقارب على أقل تقدير - وهو الانحناء، وإن كان السجود في مفهومنا أشدّ انحناءً من الركوع. ودلالتهما على الخضوع لم يقصد به خضوع المرء المسلم في صلاته، خضوعاً يظهر منه في الجوارح سكون وتواضع، وإنما هو مجرد حالة من الذل والضعف التي وظفت في غير هذا الاستعمال، وتوظيفها فيهما - أي في الركوع والسجود - إنما هو لحكمة تكشف فيما بعد في عصر لاحق.

وقد فرضت طبيعة البحث على الباحث أن يستثمر الشواهد والأخبار التي حصل عليها في غير ما سبق، يستدل بها ما أمكن على معرفة الجاهلي بالصلاة من ناحية، ويستكمل جوانب الحديث عنها من ناحية أخرى؛ فتحدث عن مستلزمات الصلاة التي تبنت له في الحديث عن مكان الصلاة، ومعرفة العرب بالوضوء، والخشوع، والتسبيح.

- الصلاة في اللغة (تعريفها واشتقاقها):

أ - اشتقاقها اللغوي:

عرّف اللغويون الصلاة تعريفاً عاماً^(١) لا يرتبط بعصر من العصور، ولا يبيّن التطوّر التاريخي لفهمهم لها، أو لفهم الناس للأفعال التي ينبغي أن يقوموا بها في إطارها، أو التي تعارفوا عليها تعارفاً اتخذ صورة فهمهم لها أولاً، وعاداتهم فيها ثانياً. وعرّفها بعضهم تعريفاً خاصاً^(٢) اكتسب دلالاته من القرائن التي ارتبطت به في الإسلام، وهي قرائن تتعلق بما يقوم به المسلم من أفعال حركية على المستوى المادي، وبما يرافق الأفعال من أدعية قولية على المستوى المعنوي. وهم في تعريفهم إياها انقسموا قسمين، قسم ذكر معناها ذكراً بوصف فيه هيئتها من فعل وقول من الإنسان وغيره، وقسم آخر ذكر معناها ذكراً يصف فيه الأصل في اشتقاقها اللغوي، أو الأصل الحسي المادي مما تقع عينه عليه، وعول عليه في تطوّر معناها في الإسلام تطوراً عملياً تطبيقياً.

فبعضهم ذكر أن الصلاة واوية، وقد ذهبوا - بناء على ذلك - في تفسير معناها وبيان أصلها في الاشتقاق مذاهب ثلاثة، أما المذهب الأول فيبدو أن اللغويين تبوّه عندما استقرّ مفهوم الصلاة في الإسلام^(٣)؛ يقول ابن جني^(٤): "الصلاة عندنا من الواو، يدلك على ذلك ما كان رآه أبو علي فيها، وذلك أنها من الصلّوين^(٥) وهما مكتئفا

(١) المقصود بذلك الدعاء وسبأتي الحديث عنه.

(٢) وهي التعاريف التي دلّ عليها أصلها اللغوي الواوي أو اليائي.

(٣) انظر تمام قول أبي علي برواية ابن جني فيما يأتي من حواشي، إذ يدلّ سياق الكلام على ما ذكرناه.

(٤) ابن جني، أبو الفتح، عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، المحتسب، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٦هـ - ١٣٨٩هـ = ١٩٦٦م - ١٩٦٩م، ٨٤:٢، وانظر مرتضى الزبيدي، أبو الفيض، محمد بن محمد (ت ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م: (صلو)، و"أبو عودة"، التطوّر الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٨١.

(٥) في الزجاج، أبو إسحاق، إبراهيم بن السري بن سهل (ت ٣١١هـ)، معاني القرآن وإعرابه، شرح وتحقيق عبد الجليل عبده شلبي، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م، ٢٣٢:١. الصلّوين، وهما مكتئفا ذنب الناقة، وأول مؤصل الفخذ من الإنسان، وكانهما في الحقيقة مكتئف العُصْص، وانظر ابن منظور، جمال الدين، أبو الفضل، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٣٧٤هـ - ١٤١٢هـ = ١٩٥٥م - ١٩٩٢م: (صلا) في رواية عن الزجاج.

ذَنبُ الفرس وغيره مما يجري مجرى ذلك ... واشتقاقه منه أن تحريك الصَّلَوَيْنِ أول ما يظهر من أفعال الصلاة^(١). ويذكر القرطبي فيما يرويه عن غيره أن الصلاة مأخوذة من مفرد هذه الكلمة من "الصَّلَا"، ويُفسره مرةً التفسير الذي يذكر أن للإنسان صَلَوَيْنَ، ويُفسره مرةً أخرى تفسيراً يُقَرَّبُ من التفسير السابق؛ فيقول^(٢) هو "عَرَقٌ في وسط الظهر ويفترق عند العَجَب فيكتنفه".

وقد استفاد اللغويون والمفسرون من المعنى اللغوي لـ: الصَّلَا^(٣) أو الصَّلَوَيْنِ^(٤) مَنْ ذَكَرَ مِنْهُمْ المفرد أو المثنى، فسموا منهما المُصَلِّي في سَبَقِ الخيل، وهو الذي يجيء بعد السابق، لأن رأسه يلي صلا المتقدم، فكأنه يأتي ورأسه مع ذلك المكان^(٥)، إذ يكون رأسه عند صَلَاة^(٦)؛ يقول بعضُ بني قيس بن ثعلبة في هذا المعنى^(٧):

إِنْ تَبَسَّرْ غَايَةً يَوْمًا لِمَكْرَمَةٍ تَلَقَّ السَّوَابِقَ مِنَّا وَالْمُصَلِّينَا^(٨)

يقول القرطبي^(٩): "فاشتقت الصلاة منه"، ويعلّل ذلك إما لأنها جاءت ثانياً للإيمان فشبهت بالمصلي من الخيل، وإما لأن الراكع تنثى صَلَوَاهُ^(١٠).

وأما أصحاب المذهب الثاني فاستندوا إلى كَوْنِ جمعها "صَلَوَاتٌ" كَقَنَآةٍ وَقَنَوَاتٍ^(١١)، يقول ابن جني^(١٢): "وقولهم أيضاً^(١٣) في الجمع: صلوات قاطع بكون اللام واواً".

وهذه أصحاب المذهب الثالث إلى أن الصلاة واوية مأخوذة من صَلَّى إذا دعا، وهو اسم وُضِعَ مَوْضِعَ

(١) وتاممه: "فأما الاستفتاح ونحوه من القراءة والقيام فأمر لا يظهر، ولا يخص ما ظهر منه الصلاة، لكن الركوع أول ما يظهر من أفعال المصلي".

(٢) القرطبي، أبو عبد الله، محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ)، تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، اعتنى به وصححه هشام مسمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م، ١: ١٦٨.

(٣) هو القرطبي.

(٤) وهم من أخلصنا إليهم في الحواشي التالية دون القرطبي.

(٥) الزجاج، معاني القرآن ٢٣٢:١، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (صلا).

(٦) الجوهري، أبو نصر، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ)، الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط ٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م: (صلا)، والصلا: ما عن يمين الذنب وشماله؛ وهما صَلَوَان.

(٧) وهم من بكر بن وائل، والبيت - من قصيدة - يُنسب إلى غير شاعر، منهم المُرْقَش الأكبر وبشامة بن حَزَن النهشلي. الأعلام الشنقري، أبو الحجاج، يوسف بن سليمان بن عيسى (ت ٤٧٦هـ)، شرح حماسة أبي تمام، تحقيق وتعليق علي المفضل حمودان، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م، ص: ٣٦٦ - ٣٦٧، وانظر شيخو اليسوعي، الأب لويس، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ط ٤، دار المشرق والمكتبة الشرقية، بيروت، ١٩٩١م، ص: ٢٨٧، وفيه ينسب إلى المُرْقَش الأكبر وإلى غيره، والبيت ليس في المُرْقَش الأكبر، المُرْقَش الأكبر أخياره وشعره (القسم الثاني)، جمع نوري حمودي القيسي، مجلة العرب، ج ١٠، ص ٤، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ربيع الثاني ١٣٩٠هـ = حزيران - تموز (يونيو - يوليو) ١٩٧٠م.

(٨) قال المصليين ولم يقل المصليات مع السوابق لأن قصده إلى الأدبيين وإن كان استعارهما من صفات الخيل. انظر المرزوقي، أبو علي، أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ)، شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط ١، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ = ١٩٩٩م، ص: ١٠٣.

(٩) تفسيره ١٦٨:١.

(١٠) المصدر السابق ١٦٨:١.

(١١) انظر الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (صلا)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو)، و"أبو عودة"، التطوّر الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٨١.

(١٢) المحتسب ٨٤:٢.

(١٣) يريد أن يبين وجه احتجاجه في كونها من الواو.

المصدر^(١)، تقول: صَلَّى صَلَاةً، وَلَا تَقُلْ: صَلَّى تَصَلِّيَةً^(٢).

وعندما فزع المفسرون واللغويون في تفسير المعنى بِـ"صَلَوَاتٍ" في سورة الحج^(٣)، إلى أصلها بالعبرانية "صَلَوَاتَا"^(٤)، وإلى مجمل القراءات التي قُرِئَتْ بها، فإنها قُرِئَتْ فيها جميعها بالواو^(٥)؛ يقول ابن جني^(٦): "اعلم أن أقوى القراءات في هذا الحرف هو ما عليه العامة، وهو: "صَلَوَاتٍ"^(٧)... فأما بقية القراءات فيه فتحريف وتشبث باللغة السريانية واليهودية"، ويعلل قوله فيما ذهب إليه من رأي أن الصلاة عنده من الواو لكونها من الصلّوين، وكون جمعها صَلَوَاتٍ، وهو ما ذكرناه.

ورد بعضهم الأصل في الاشتقاق اللغوي للصلاة إلى أصل يائي، وفسر هذا الأصل بما رآه في بيئته من معطيات مادية أوحى إليه دلالة صريحة، كالدلالة التي ألزم الله بها عباده في القيام بواجب الصلاة، وهذا التفسير وإن يكن قال به المفسرون واللغويون في وقت متأخر عن الجاهلية، في قياس ما جاء به الإسلام على ما هو موجود في البيئة، إلا أن الأصل المقيس عليه موجود في العصور كلها منذ الجاهلية نفسها، ودلالته في الشعر فيها أيضاً، فذكروا أن الأصل في الصلاة اللزوم، يقال: صَلَّى وَأَصَلَّى واصطَلَّى، إذا لَزِمَ، ومن هذا ما يُصَلَّى في النار، أي أنه يُلْزَمُ^(٨)، سُمِّيتَ بها لأنها لزوم ما فرض الله تعالى بها^(٩)، قال الحارث بن عباد^(١٠):

لَمْ أَكُنْ مِنْ جَنَاتِهَا عِلْمَ اللَّهِ — لِي وَإِنِّي بِحَرِّهَا الْيَوْمَ صَالِي^(١١)

وقال القرطبي^(١٢): "وكان المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحد الذي أمر الله تعالى به". ورجح اللغويون هذا الرأي على سابقه^(١٣)، وكانوا ذكروه أولاً، فقال الزجاج^(١٤): "والأصل عندي القول الأول ... إنما [الصلاة]^(١٥) ... لزوم ما فرض الله، والصلاة من أعظم الفرض الذي أمر بِلُزومه".

(١) مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو)، وانظر الجوهري، الصحاح: (صلا).

(٢) أي دعا، وسيأتي الحديث عن هذا المعنى. مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو)، وانظر الجوهري، الصحاح: (صلا).

(٣) الآية: ٤٠، وهي قوله تعالى: ﴿لَهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبُيُوتٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾.

(٤) بفتح الصاد والياء الفوقية. القرطبي، تفسيره ٧١:١٢، وابن منظور، لسان العرب: (صلا)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس:

(صلو)، وانظر علي، جواد، تاريخ الصلاة في الإسلام: ١٢ - ١٣.

(٥) القرطبي، تفسيره ٧١:١٢، وانظر ابن جني، المحتمسب ٨٣:٢، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو).

(٦) المحتمسب ٨٣:٢ - ٨٤.

(٧) وبلي ذلك "صَلَوَاتٍ" و "صَلَوَاتٍ" و "صَلَوَاتٍ". وضبطت الأولى في تاج العروس: "صَلَوَاتٍ". والمقصود بقوله: "بقية القراءات"، عدا ما ذكرنا في المتن عنه، وفي هذه الحاشية.

(٨) الزجاج، معاني القرآن ٢٣٢:١.

(٩) مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلي).

(١٠) الأصمعي، أبو سعيد، عبد الملك بن قُريب (ت ٢١٦هـ)، الأسمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م، ص: ٧١، وانظر الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تفسيره = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٧م - ١٩٦٩م، ٢٩:٨.

(١١) أي ملازم لحرفها.

(١٢) تفسيره ١٦٩:١.

(١٣) أي على قولهم إن الصلاة من الصلّوين.

(١٤) معاني القرآن ٢٣٢:١، وانظر "أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٨٢.

(١٥) زيادة ليست من النص.

ولم يتوان المفسرون واللغويون في محاولتهم البحث عن الأصل اللغوي الذي اشتقت منه الصلاة، من الاتكاء على ما تفعله النار فيما يلقى فيها، فعلاً أدى دلالة وظيفية للمصلي في واجب القيام بالصلاة، ومعنوية في التزامها كما سبق، واللّين بالخشوع فيها، مستفيدين من الاسم الذي يطلق عليها - وهو الصلّاء^(١) - في دلالة أخرى تُردُّ إلى أصل يائي؛ فقالوا^(٢): "هي مأخوذة من صَلَّيْتُ العود بالنار إذا قَوْمْتَهُ وَلَيَّنْتَهُ بالصلّاء ... فكان المصلي يقوم نفسه بالمعانة فيها ويلين ويخشع"؛ قال قيس بن زهير العبسي^(٣):

فَلَا تَعْجَلْ بِأَمْرِكَ وَاسْتَكِمَّه فَمَا صَلَّيْ عَصَاكَ كَمَا سَتَكِمَّه^(٤)

وهذا المعنى الذي توصل إليه العلماء، المتمثل في خشوع المصلي في صورة من التواضع والتذلل والاستكانة^(٥)، عرفه العرب في معناه الأصلي في خشوع الدار بعد الإقواء^(٦)، إذا تداعت واستوت مع الأرض فلا منزل بها^(٧)؛ قال النابغة الذبياني^(٨):

رَمَادٌ كَكَخْلِ الْعَيْنِ لَأَيَّ أَبْيَنُهُ وَنُؤْيٍ كَجِذْمِ الْحَوْضِ أَنْلَمُ خَاشِعُ

واستفاد اللغويون من الاسم الذي أطلقوه على النار، في بناء فعل ثلاثي مضعّف العين على وزن "فَعَلَ"، أفاد السُّلْبَ وإزالة^(٩) الضرر عنن يقوم بهذه العبادة، في اتّقاء عذاب الله في النار، إفادة عولوا عليها في بناء الأصل اللغوي للصلاة بناءً يائياً على نحو ما يذكر الراغب عن بعضهم أن "أصل الصلاة من الصلّاء ... ومعنى صَلَّي الرجلُ أي أنه أزال عن نفسه بهذه العبادة الصلّاء الذي هو نارُ الله الموقدة، وبناء صَلَّي كبناء مَرَضَ لإزالة المرض"^(١٠).

ب- معناها في اللغة:

إن ما ذكرناه لا يعدو أن يكون ألفاظاً لغوية ذات أصل واوي أو يائي، حاول علماء اللغة والتفسير أن يرجعوا الصلاة في اشتقاقها اللغوي إلى إحداهما، أو أن يشتقوا من هذه الألفاظ معاني تدلّ على الصلاة، وهي معانٍ استُحدثت في الإسلام، واستمدّها العلماء مما رأوه من أفعال المصلي في حركة أعضائه، وهيئة ركوعه، والتزامه القيام بالصلاة، وخشوعه وخضوعه؛ فحاولوا أن يجدوا الألفاظ لغوية ينتزعون منها هذه المعاني، ويرجعون الأصل

(١) الصلّاء: النار، وقيل غير ذلك. ابن منظور، لسان العرب: (صلا)، ومرئضى الزبيدي، تاج العروس: (صلي). وانظر الحديث التالي.

(٢) القرطبي، تفسيره ١٦٩:١، وانظر مرئضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو)، (صلي).

(٣) الجوهري، الصحاح: (صلا).

(٤) صَلَّي: أي قَوْمَ.

(٥) بدافع الخشية لله، والخوف من سطوته، والخضوع لطاعته. الطبري، تفسيره (شاكراً) ١٧:٢، وانظر ص: ١٦، والقرطبي، تفسيره ٣٧٤:١ في تفسيره "الخالع".

(٦) إذا أقرت وخلت من أهلها. القرطبي، تفسيره ٣٧٤:١.

(٧) انظر ابن منظور، لسان العرب: (خشع).

(٨) النابغة الذبياني، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ص: ٣٠.

(٩) انظر هذا المعنى الذي أفادته الزيادة في عين الفعل في: الراجحي، عبده، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م، ص: ٣٤ - ٣٥.

(١٠) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد خليل عيتاني، ط ٣، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م: (صلا).

في الاشتقاق اللغوي للصلاة إليها، وإن تكن الصلاة وما اشتقّه اللغويون من ألفاظ تتصل بها وتقع في دائرتها مثل المُصَلِّي، واتصافه بالخشوع والتزامه الصلاة موجودة في العصر الجاهلي، إلا أنها وردت عنهم في معانٍ تبعد عن المعاني الصريحة التي استعملت فيها في الإسلام، ولم تكن في تفكير العربي الجاهلي على النحو الذي طبقه المسلمون، وإن كان بعضها استعمل في الجاهلية على نحو تأويلي لمعناها في الإسلام، كما في معاني الألفاظ: المُصَلِّي والخاشع والصَلِّي في النار إذا ارتضينا هذا المنهج فيها من وجه، ومن وجه آخر قد يكون معناها في الإسلام تطوراً لمعناها في الجاهلية، إذا أخذنا بعين الاعتبار تغير العصر، وتغير الظروف ودلالة الألفاظ على المعاني بالمفاهيم التي جاء بها الإسلام؛ أما "الصلاة" فهي تطور شمولي، استوعب معناها في الجاهلية، وأضاف إليها أفعالاً أخرى إضافة نتجاوز بها ما قدّمنا من معانٍ - مادية تُحمّل على الجانب العملي في أكثرها، ذكرها العلماء في اختلافهم في الاشتقاق اللغوي للصلاة - إلى الجانب المعنوي الذي يكون في الدعاء وما يتعلّق به من معانٍ، تقع ضمن الإطار الذي يُفسّر به الدعاء عند اللغويين والمفسرين، كان تعلّقها به تعلّقاً لازماً أعطى المعنى نفسه من ناحية، وأكّده من ناحية أخرى؛ فقد ذهب فريق من العلماء إلى القول إن الصلاة في اللغة الدعاء^(١)، "وهو أصل معانيها"^(٢)؛ كما قال الأعشى في صفة الخمر^(٣):

لَهَا حَارِسٌ مَا يَرْحُ الدَّهْرَ بَيْتَهَا إِذَا دُبِحَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَرَمَزَمَا

يعني بذلك: دعا لها^(٤)؛ وكقوله أيضاً في المعنى نفسه^(٥):

وَقَابَلَهَا الرِّيحُ فِي دَنِّهَا وَصَلَّى عَلَى دَنِّهَا وَلَارَتْ سَمَ

أي دعا لها أن لا تحمض ولا تفسد.

وهؤلاء انقسموا في تحليلهم هذا المعنى قسمين، فطائفة منهم جعلت أصلها في الاشتقاق اللغوي (الواوي) علّة في هذا المعنى، فهي مأخوذة - كما ذكرنا - من صَلَّى صلاة^(٦)، أو من صَلَّى يُصَلِّي: أي دعا^(٧)، وسواء أدّى المصدر الدور الوظيفي للاسم^(٨)، أو أعطى المعنى نفسه، أو كان الفعل المضارع المضغف العين ينوب في معناه عن المعنى الذي يؤدّيه الفعل الماضي المضغف العين، في أداء الصلاة أداءً يفيد الاستمرارية على نحو من التكثير والمبالغة، فإن هذا الأصل اللغوي في اشتقاق الصلاة لا يدل من قريب أو بعيد على معنى الدعاء، ولكن عندما رأى العلماء أن معناها في كلام العرب الدعاء^(٩)، وأنه أصل معانيها، ربطوا بين هذا المعنى وبين الأصل الذي تعود إليه (الواوي)،

(١) الطبري، تفسيره (شاکر) ٢٤٢:١، والجوهري، الصحاح: (صلا)، والقرطبي، تفسيره ١٦٨:١، ١٦٩، ٣٧٢، وابن منظور، لسان

العرب: (صلا)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو)، وانظر علي، جواد، تاريخ الصلاة في الإسلام: ١٢.

(٢) مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو)، وانظر "أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٨١.

(٣) الأعشى، ديوانه، شرح وتعليق م. محمد حسين، مكتبة الأدب، القاهرة، ١٩٥٠م، ص: ٢٩٣.

(٤) مخافة أن تكون فاسدة فيخسر.

(٥) المصدر السابق: ٣٥.

(٦) انظر حديثنا فيما سبق. وقال مرتضى الزبيدي (تاج العروس: صلو): "الذي عُرف من سياق الجوهري المصنّف أن الصلاة واوية مأخوذة من صَلَّى إذا دعا".

(٧) القرطبي، تفسيره ١٦٨:١.

(٨) على اعتبار أن الصلاة اسم وُضِع موضع المصدر.

(٩) الطبري، تفسيره (شاکر) ٢٤٢:١.

فقالوا به دون أن يدل هذا الأصل على ذلك المعنى.

وطائفة من العلماء ذكّرت أن تسمية الصلاة بالدعاء إنما جاءت من كون الصلاة إحدى العبادات التي يتقرب بها العبد إلى ربه، والدعاء وسيلة التقرب إليه سبحانه وتعالى، وهو يشكّل جزءاً من أجزاء يقوم بها المسلم في إطار الصلاة، دون أن ينظر العلماء إلى الأصل في حقيقة استخدامها عند العرب على هذا النحو، كما هو واضح في أشعارهم، وفي الأخبار التي رواها الرواة عنهم في هذا الصدد، بما يغني العلماء عن إيجاد تعليل لتسمية الصلاة به، إلا من حيث هو وسيلة القربى إلى الله تعالى؛ فابن الأثير يذكر أن الصلاة "هي العبادة المخصوصة، وأصلها في اللغة الدعاء فسميت ببعض أجزائها"^(١)، وذلك من باب إطلاق اسم الجزء على الكل، وهو الذي يسميه البلاغيون المجاز المرسل.

ويذكر الزبيدي هذا التعليل بصورة ثانية؛ فيقول إنما سميت الصلاة كذلك لـ "اشتغالها على الدعاء الذي هو أصل معناها"^(٢)، أما الراغب الأصفهاني فيشير إلى هذا المعنى إشارة غير مباشرة، فهو يعيد الضمير "بها" في القول التالي إلى الصلاة التي هي جزء من العبادة، والتي أصلها الدعاء؛ فيقول^(٣): "والصلاة التي هي العبادة المخصوصة أصلها الدعاء وسميت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمّنه".

ويرى الطبري أن الدعاء وسيلة المسلم في التقرب إلى الله تعالى، تقرباً يرجو فيه تحقيق مطالبه وحاجاته؛ فيقول في معرض تسمية الصلاة باسمها تسمية تدل على الدعاء^(٤): "وأرى أن الصلاة المفروضة سُميت صلاة، لأن المصلّي متعرّضٌ لاستتجاح طليّته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه من حاجاته، تعرّض الداعي بدعائه ربه استتجاح حاجاته وسؤله".

وذهب فريق من غير من ذكرنا إلى عدم التفريق بين الدعاء، والمصطلحات التي ارتبطت به في تعريفهم الصلاة، والسبب في ذلك أن بعض هذه المصطلحات كانت تُذكر في إطار الدعاء بمعناه أو معه، ولذلك عرّف بعضهم الصلاة أنها "الدعاء والاستغفار"، واستشهدوا على هذا المعنى ببيت الأعشى: "وقابلها الرّيحُ في دَنّها..."^(٥). ومن هذا المنظور عرّف الراغب الأصفهاني الصلاة؛ فقال^(٦): "قال كثيرٌ من أهل اللغة: هي الدعاء والتبرُّك والتمجيد، يقال صَلَّيتُ عليه أي دَعَوْتُ له وَزَكَّيْتُ".

وأفضل ما قيل في ارتباط هذه المصطلحات بالدعاء ولزومها له، لزوماً يحتمل أن تؤدي الصلاة فيه معنيين قول صاحب المصباح^(٧): "قيل: الصلاة في اللغة مشتركة بين الدعاء والتعظيم والرحمة والبركة". وكذلك قول القرطبي

(١) ابن الأثير، مجد الدين، أبو السعادات، المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ٣: ٥٠.

(٢) تاج العروس: (صلو).

(٣) المفردات: (صلا).

(٤) تفسيره (شاكراً) ٢٤٣: ١.

(٥) ابن منظور، لسان العرب: (صلا)، وانظر علي، جواد، تاريخ الصلاة في الإسلام: ١٢.

(٦) المفردات: (صلا).

(٧) الفيومي، أبو العباس، أحمد بن محمد بن علي (ت ٧٧٠هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تحقيق عبد العظيم الشنلوي، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ص: ٣٤٦، وانظر مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو)، والمثال الذي استشهد به.

إن الصلاة لفظ مشترك، وقد أضاف إلى المصطلحات السابقة مصطلحات أخرى^(١)، إنما يعني منها ما ذكره أن الصلاة تعني العبادة، واستشهد على هذا المعنى بقوله تعالى عن أهل الجاهلية^(٢): (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ)، وأن الصلاة تعني التسبيح^(٣)، لأن العرب عرفوا الصلاة بهذا المعنى. وقد ذكر العلماء أمثلة كثيرة على المعنى المشترك الذي أفادته الصلاة من مثل: الرحمة والبركة، والدعاء والبركة، والدعاء بالمغفرة والبركة، والدعاء والتزكية، والدعاء بالبركة والخير^(٤).

والسبب الآخر أن الصلاة اتخذت صيغة الدعاء بمصطلح آخر هو أليق بمن تصدر منه، صدوراً جاء من جهات ثلاث حسب تقسيم العلماء لمعناها، كالرحمة والثناء؛ فقالوا: إن الصلاة من الله تعالى الرحمة^(٥)، فصلاة الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: رَحْمَتُهُ لَهُ وَحُسْنُ ثَنَائِهِ عَلَيْهِ^(٦)، إذ يقال إنه لا منافاة بينهما^(٧)، وفي هذا المعنى - أي الرحمة - يقول الشاعر^(٨):

صَلَّى عَلَيَّ اللهُ مَا حَجَّ لَهُ رُكْبٌ وَحَثَّ

ويقول حسان بن ثابت^(٩):

صَلَّى إِلَهٌ وَمَنْ يَخْفُ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدُ

ويقول أيضاً في صلاة الله على عباده^(١٠):

صَلَّى إِلَهٌ عَلَى الَّذِينَ تَتَابَعُوا يَوْمَ الرَّجِيعِ، فَأَكْرِمُوا وَأَثْبِتُوا

والصلاة من الملائكة دعاء واستغفار^(١١)، وبه سميت الصلاة لما فيها من الدعاء والاستغفار^(١٢). وذكر القرطبي

(١) من مثل قوله: الصلاة: النافلة؛ ومنه قوله تعالى: "وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ" (سورة طه، الآية: ١٣٢)، وقوله: الصلاة: القراءة؛ ومنه قوله

تعالى: "وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ" (سورة الإسراء، الآية: ١١٠). القرطبي، تفسيره ١: ١٦٩، وانظر هود، الآية: ٨٧.

(٢) الأنفال، الآية: ٣٥، وسيأتي الحديث عن ذلك.

(٣) تفسيره ١: ١٦٩.

(٤) ابن الأثير، النهاية ٣: ٥٠، وابن منظور، لسان العرب: (صلا)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو).

(٥) انظر الأحزاب، الآية: ٤٣، ٥٦.

(٦) انظر البقرة، الآية: ١٥٧ بمعنى ثناء الله على عباده. ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار التقوى، وعالم المعرفة، المنيا، ٢٠٠٢م، ٢٢٩: ١. وقد فسرها الطبري، تفسيره (شاكراً) ٢٢٢: ٣ في الآية نفسها: "أُولَئِكَ عَلَىٰ صَلَواتٍ مِنْ رَبِّهِمْ" بمعنى المغفرة، "صلوات الله" على عباده، فقرأه لعباده.

(٧) أي بين الصلاة من الله بمعنى الرحمة، وبين معناها الثناء. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣: ٥٨٣.

(٨) ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، دقق أصوله وحققه أحمد أبو ملح وأخرون، ط ٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م، ٢: ٢١٩.

(٩) حسان بن ثابت، ديوانه، تحقيق وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م، ١: ٢٧٠ في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم، وانظر ص: ٣٢١ يرثي حمزة بن عبدالمطلب.

(١٠) المصدر السابق ١: ١٧٩ في رثاء قتلى يوم الرجيع.

(١١) وتام الحديث في هذا الموضوع: "ومن الله رحمة". انظر الأحزاب، الآية: ٤٣، ٥٦، وذكر الراغب (المفردات: صلا): هي من الملائكة هكذا كما هي من الناس.

(١٢) ابن منظور، لسان العرب: (صلا).

أن الجهة الثالثة التي تصدر منها الصلاة - في تقسيمه معنى الصلاة - الأمة؛ فقال^(١): إن الصلاة "من الأمة الدعاء والتعظيم لأمره". ورأى ابن الأعرابي تقسيماً آخر في معنى الصلاة أكثر شمولية للفئات التي تصدر منها، كثرة فرق في معناها بينهم؛ فذكر أن الصلاة من الله رحمةً، ومن المخلوقين الملائكة والإنس والجن: القيام والركوع والسجود والدعاء^(٢) والتسبيح. والصلاة من الطير والهوام التسبيح^(٣). ورأى غيره أن صلوات الرسول وصلاة الله للمسلمين هو في التحقيق تركبته إياهم^(٤).

وجعل الزجاج الصلاة على ضربين، يختص الضرب الأول منهما بالنواحي العملية التطبيقية المتعلقة بالحركات التي يفعلها المصلّي في صلاته، ويختص الثاني منهما بالنواحي المعنوية المتعلقة بالقول، أي الدعاء وما يتصل به من مصطلحات، اتصالاً يرتبط بمن تصدر منه؛ فقال^(٥): "والصلاة في اللغة على ضربين: أحدهما الركوع والسجود، والآخر الرحمة والثناء والدعاء - فصلاة الناس على الميت إنما معناها الدعاء^(٦)، والثناء على الله صلاة، والصلاة من الله عز وجل على أنبيائه وعباده معناها الرحمة لهم، والثناء عليهم، وصلاتنا الركوع والسجود ... والدعاء صلاة".

وقد تجاوز بعض العلماء تعريف الصلاة تعريفاً عاماً أنها عبادة وحسب، مستشهداً على ذلك بما أخبر الله تعالى به عن أهل الجاهلية، أو أنها من العبادات التي لم تنفك شريعة منها وإن اختلفت صورها بحسب شرع فشرع^(٧)، إلى تعريف أكثر خصوصية في هيئة الصلاة؛ فقالوا^(٨): "الصلاة ... عبادة فيها ركوع وسجود، اسم يؤضع موضع المصدر"، فهي على هذا اسم علم وضع لهذه العبادة^(٩)، في حين اقتصر بعضهم على ذكر هيئتها دون وصفها^(١٠)، ذكراً أغنى أحدهما عن الآخر، وحاكوا فيه المفهوم من آياته الكريمة^(١١).

ولعلهم أغرقوا في الإفادة من المفاهيم الإسلامية، في محاولتهم البحث عن أصول لغوية يفسرون معنى الصلاة بها في تعريفهم إياها، تفسيراً انتزع منها انتزاعاً واضحاً؛ فقد ذكروا أن الصلاة "هي العبادة المخصوصة ... قيل إن أصلها في اللغة التعظيم. وسميت العبادة المخصوصة صلاة لما فيها من تعظيم الرب تعالى^(١٢)"، واستشهدوا على ذلك بالأدعية التي يراد بها تعظيم الله تعالى، أو التي يراد بها تعظيم رسوله الكريم وتكريمه.

(١) إضافة إلى ما ذكره: الصلاة من الله تعالى، ومن الملائكة. تفسيره ٢٣٢:١٤.

(٢) انظر التوبة، الآية: ١٠٣ صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين دعوته لهم، والأحزاب، الآية: ٥٦ صلاة المسلمين للرسول (صلى الله عليه وسلم) دعاؤهم له.

(٣) ابن منظور، لسان العرب: (صلا).

(٤) الراغب، المفردات: (صلا).

(٥) معاني القرآن ٢٣١:١.

(٦) أي الدعاء للميت بالرحمة من الله.

(٧) ولذلك قال تعالى: (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً)، النساء، الآية: ١٠٣. الراغب الأصفهاني، المفردات: (صلا).

(٨) الفيروز آبادي، مجد الدين، أبو طاهر، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م: (صلو).

(٩) القرطبي، تفسيره ١٦٩:١.

(١٠) الزجاج، معاني القرآن ٢٣١:١، وابن منظور، لسان العرب: (صلا)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو).

(١١) انظر البقرة، الآية: ١٢٥، والصح، الآية: ٢٦ وغيرهما.

(١٢) ابن الأثير، النهاية ٥٠:٣.

وإنما جعلت الصلاة عند العلماء عبادة وتعظيماً، ووسيلتهم إليهما في الصلاة للدعاء، للأمر الذي ذكرناه سابقاً^(١)، والذي من أجله جعل العلماء الدعاء يدل على الصلاة، دلالة رسخت في استعمال العرب له، وثبتت في الأشعار والأخبار المروية عنهم؛ إذ قال بعض العارفين^(٢): "الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، جعلت وسيلة للتقرب منه ... إذ هو (صلى الله عليه وسلم)، بعد صلاة الله عليه لا يحتاج إلى أحد، وإنما شرعت تعبداً لله وقربة إليه ووسيلة للتقرب إلى الجناب المنيع ومقامه الرفيع ...".

- الصلاة في العصر الجاهلي: أشكالها وأوقاتها في الشعر والأخبار:

١- الصلاة دعاء:

إن جميع المعاني التي ذكرها العلماء في تعريفهم الصلاة، إنما هي معانٍ جديدة أوجدها الإسلام لتحمل المفاهيم التي جاء بها، وهي وإن اختلفت صورها لفظاً، إلا أنها تؤدي معنى واحداً أداءً يؤوّل في معنى الدعاء، أو أنها انبثقت جميعها من الغرض الذي يؤدّيه الدعاء بالألفاظ متعددة، لتؤدي بدورها خدمة دينية فرضها الإسلام على المقيمي الصلاة خاصة، وعلى العباد عامة، وهذا يعني أنها كانت تؤدي في إطار الدعاء لتحمل الغرض الذي وضعت له، والمعنى الذي أطلق عليها. وهي في الحالتين كان الدعاء الأصل فيها، وهو أصل قال به العلماء الذين ذكروا رأيين أو أكثر يردون الصلاة في اشتقاقها إليه، فذهبوا إلى أنه أعلى الآراء كما هو في قول ابن دريد^(٣): "واختلفوا في اشتقاق الصلاة فقال قوم: الصلاة: الدعاء ... وقال قوم: بل اشتقاق الصلاة من رفع الصلّا في السجود. والأول أعلى". وذهب غيره إلى أنه أشهر الآراء وعليه من العلماء الأكثر^(٤)، وأفضل ما قيل في هذا الصدد قول الفخر الرازي^(٥): "[اختلف في وجه تسميتها على أقوال] والأقرب أنها مأخوذة من الدعاء، إذ لا صلاة إلا ويقع فيها الدعاء أو ما يجري مجراه". بل لقد ذهب اللغويون إلى أبعد من ذلك، عندما عمّموا القول في تعريفهم الصلاة بحيث شمل معناها - في رأيي - الألفاظ جميعها التي تحمل معنى الدعاء، أو تذكر في إطاره، فقالوا^(٦): "وكل داع ... مصل"، تعميماً ينسجم مع ما ذكرناه في قول من قال إن الصلاة عبادة لم تنفك شريعة عنها وإن اختلفت صورها. وفي هذا ردّ على قول من قال إن الصلاة "حقيقة شرعية لا دلالة لكلام العرب عليها إلا من حيث اشتغالها على الدعاء"^(٧)، أو ما يقتضي كلامه "أن الصلاة الشرعية حقيقة معروفة للعرب"^(٨)، أو أن الصلاة من الألفاظ الإسلامية^(٩)، متجاهلاً حقيقتها التاريخية، وأصلها اللغوي على اعتبار أنه أراد الصلاة الشرعية، وليس الدعاء على

(١) وهو أن الدعاء وسيلة للتقرب إلى الله تعالى.

(٢) مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو).

(٣) ابن كثر، أبو بكر، محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ)، جهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م - ١٩٨٨م: ١٠٧٧، وانظر "أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٨١.

(٤) القرطبي، تفسيره ١: ١٦٨.

(٥) الرازي، فخر الدين، أبو عبد الله، محمد بن صر (ت ٦٠٤هـ)، تفسير الفخر الرازي (المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م، ٤٨: ٢، وانظر مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو)، وما بين القوسين زيادة منه.

(٦) ابن منظور، لسان العرب: (صلا)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو).

(٧) مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو).

(٨) المصدر السابق: (صلو).

(٩) السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن الكمال (ت ٩١١هـ)، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، شرح وضبط وتعليق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ٢٩٥: ١.

عُرِفَها في اللغة. وأفضل ما قيل في التشكيك في الآراء السابقة قول الزبيدي^(١): "وفي الكل نظر"، مع أن الموارد الإسلامية تشير إلى أن الصلاة في الإسلام بقيت تؤدّي معنى الدعاء، فقد استشهد العلماء بأقوال^(٢) - أي أدعية - وأخبار تتعلّق بالرسول (صلى الله عليه وسلم)، أو بغيره^(٣)، وأحاديث^(٤)، وآيات^(٥)، أدّت الصلاة فيها معنى الدعاء. ونحن نعلم أن الدعاء بشكل في الواقع العملي والفعل في الصلاة جزءاً من أجزاء يقوم بها المسلم في إطار هذه العبادة، وهذا يدل على احتمال أن العرب حافظوا على معنى الصلاة في الديانة الإبراهيمية من حيث دلالتها على الدعاء دون الإفادة من دلالاتها الأخرى فيها، لأن دلالة الصلاة على هذا المعنى موجودة عندهم، هذا المعنى الذي قُدِّرَ له أن يحيا في ذاكرة العربي الجاهلي، وإن كان المجال الذي استعملوه فيه في غير ما استعملته هذه الديانة^(٦)، وعلى أن الإسلام لم يستحدث هذا المعنى، ولم يكن من الممكن أن يأتي بمعنى جديد يدل على الصلاة، دلالة تلغي المعنى القديم لها، أو بتعبير أدقّ لم يستطع أن يفعل ذلك في مواجهة العقلية العربية^(٧)، بل لقد كانت الحكمة الإلهية في أن تبقى لفظة الصلاة حيّة في تلك الذاكرة العربية!

وكان تعرّض لهذه المسألة القدماء تعرّضاً يستفاد منه في إثبات أصلها في لغة العرب، إثباتاً ينفي أن يكون الشرع ارتجل هذه اللفظة عند المعتزلة بالمعنى نفسه الذي يدل على الدعاء؛ يقول الفخر الرازي ما نصّه^(٨): "قالت المعتزلة: الصلاة من الأسماء الشرعية، قالوا: لأنها أمر حدث في الشرع فاستحال أن يكون الاسم الموضوع قد كان حاصلًا قبل الشرع ... وقال أصحابنا من المجازات المشهورة في اللغة إطلاق اسم الجزء على الكل، ولمّا كانت الصلاة الشرعية مشتملة على الدعاء ... أطلق اسم الدعاء عليها على سبيل المجاز، فإن كان مراد المعتزلة من كونها اسماً شرعياً هذا فذلك حق، وإن كان المراد أن الشرع ارتجل هذه اللفظة ابتداءً لهذا المسمّى فهو باطل وإلّا لمّا كانت هذه اللفظة عربية، وذلك ينافي قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)^(٩)". وناقش القرطبي هذه المسألة وانتهى منها إلى دور الشرع في التصرف بالشروط والأحكام في الصلاة، وأن الصلاة باقية على معناها في أصلها اللغوي من قبل الشرع، وهو الدعاء؛ فقال^(١٠): "اختلف الأصوليون هل هي مبقاة على أصلها اللغوي الوضعي الابتدائي ... والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام، أو هل تلك الزيادة من الشرع تصبّرها موضوعة كالوضع

(١) تاج العروس: (صلو).

(٢) ابن دريد، جوهرة اللغة: ١٠٧٧.

(٣) المصدر السابق: ١٠٧٧، والقرطبي، تفسيره ١: ١٦٨.

(٤) الراغب الأصفهاني، المفردات: (صلا)، والقرطبي، تفسيره ١: ١٦٨، وابن منظور، لسان العرب: (صلا)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو).

(٥) الأحزاب، الآية: ٥٦، والتوبة، الآية: ١٠٣، والقيامة، الآية: ٣١، انظر في ذلك الراغب الأصفهاني، المفردات: (صلا)، والقرطبي، تفسيره ١: ١٦٨، ٣٧٢، و٢٣٢: ١٤، و١١٣: ١٩، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٢: ٤٦٢، ٤٦٣.

(٦) لأنهم لو أرادوا أن يحافظوا على معنى الصلاة كما يفهم من معناها في الديانة الإبراهيمية لأنوا بها، ولما احتاجوا إلى المحافظة على معنى الجزء وهو الدعاء.

(٧) لأنه كان من الصعب عليه أن يصطدم بالعقلية العربية غير المتنامية، التي لم تستوعب الرسالة المحمدية والمفاهيم التي جاءت بها، واصطدامه بها يؤثر عليها تأثيراً سلبياً، إذ يعوق نشرها ويضع العراقيل أمامها، خاصة أن العربي يفهم الأمور فهماً مادياً.

(٨) تفسيره ٢: ٤٧ - ٤٨، وانظر مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (صلو).

(٩) يوسف، الآية: ٢.

(١٠) تفسيره ١: ١٦٩ - ١٧٠.

الابتدائي من قبل الشرع. هنا اختلافهم والأول أصح؛ لأن الشريعة ثبتت بالعربية، والقرآن نزل بها بلسان عربي مبين؛ ولكن للعرب تحكّم في الأسماء، كالدابة وضعت لكل ما يدب؛ ثم خصصها العرف بالبهائم؛ فكذلك لعرف الشرع تحكّم في الأسماء". وخلاصة ما يقال في دلالة الدعاء على الصلاة أن الإسلام إنما استوعب معناها عند عرب الجاهلية، وهذب مسارها والتعامل معها، وجعل معناها جزءاً منها، وهو إن دلّ عليها فهو من دلالة الجزء على الكل، ورجوعاً إلى الأصل اللغوي، والأصل في استعمالها عندهم، وهو أصل - كما ذكرنا - ثبتت أقدميته، ورسخت جذوره في الصلاة عند الجاهليين، وأحقّيته إليهم أمر أشار إليه العلماء من خلال ما استشهدوا به من شعر شعرائهم، وذكرها الشعراء في دواوينهم، وكان مرّ منها شاهدان^(١) على هذا المعنى من شعر الأعشى يُظهران الاستعمال الحقيقي لهذه اللفظة في حياة العرب، استعمالاً يبرز ولعم بالخمير، وحرصهم على سلامتها وعدم تغيير طعمها، ويبين خدشهم بها بحيث جعلوها أنسب لفظاً في التعبير عن الدعاء، إذ دعا الخمر بها - في البيتين - مخالفة أن تكون الخمر قد فسدت، عندما بُزِلَتْ وأزيل ختمها، فيخسر عندئذٍ، أو تبور تجارتها. وكان إحساس العرب بقيمة الدعاء وأثره في حياتهم، جسده الشاعر في دعاء الخمر للخمير وأثر هذا الدعاء فيه، فقد كان العرب يدعون أمام آلهتهم متوسلين إليها أدعية متعددة، كان الغرض منها رغبتهم في تحقيق حاجاتهم وتلبية مطالبهم^(٢)؛ فالعربي لا يعرف أثر الدعاء في حياته ولا بحسنه إلا بمرودده المادي، فالمسألة عنده إذن دعاء في مقابل دعاء، والاعتقاد بتحقيق مكسب مادي في جانب يقابله الاعتقاد بتحقيق مكسب مادي آخر في الجانب الثاني، لذلك تهيأت الظروف للعربي الجاهلي للإحساس بالدعاء على هذا النحو - ونواحٍ أخرى تأتي عليها - وتهيأ له استعماله في أمور كثيرة، فكان اختيار لفظة الصلاة لتعبّر عن الدعاء أمراً اقتضاه وجود هذه اللفظة فيهم، تكشف فيما بعد في عصر لاحق.

وتجاوز العرب هذا الاستعمال للصلاة بالمعنى نفسه إلى الاستعمال الحياتي بين البشر، الذي يقوم على تعامل الآباء مع أبنائهم تعاملًا يُظهر الجانب العاطفي في توقّد المشاعر، وإطلاق العنان لمخزون الذات أن يكون دعوة روحية عند الأعشى وابنته، تنصرف إلى الجانب المعنوي في تحصيل الخير الذي أراده كل منهما للآخر، استتظفتها رحلاته الكثيرة وتجوّله في البلدان، وإلى الجانب المادي في محاولة ابنته رده عن السفر؛ فيقول^(٣):

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَرَّبْتُ مُرْتَحَلًا يَا رَبَّ جَنَّبَ أَبِي الْأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا

.....

عَلَيْكَ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتُ فَاغْتَمِضِي يَوْمًا فَإِنْ لَجَنَّبَ الْمَرْءَ مُضْطَجَعًا

ومن قبيل استعمال هذه اللفظة بمعنى الدعاء أيضاً ما ورد من شعر قيل في قصة الفيل، استعمالاً ينبئ أنهم كانوا يتوجّهون في دعائهم (صلاتهم) إلى الكعبة، توجّهاً يدل على شعور العرب بقدسية الكعبة، ومكانتها الدينية في نفوسهم، لمعرفة أنهم أنها كعبة إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم كان موحداً وعقيدته لم تُمَحّ من النفوس^(٤)، وذلك كما في

(١) هما: "أها حارس ما يترجح..."، و"قالبها الرّيح في دنّها..."

(٢) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٨٢:٦ - ١٨٣، ٣٧٥ - ٣٧٨، وغيرها.

(٣) ديوانه: ١٠١.

(٤) انظر في ذلك الجبوري، يحيى، الشعر الجاهلي: خصائصه وفنونه، ط٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م، ص: ١٠٤ -

١٠٦، والجبوري، يحيى، المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م، ص:

١٠٢ - ١٠٣، ١٠٩ - ١١٧، والحوافي، أحمد محمد، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٣٦٩هـ =

١٩٤٩م، ص: ٣٠٥ - ٣١٧. والخبر المتعلق بصلاة زيد بن عمرو بن نفيل فيما يأتي من حديث.

قول أبي قيس بن الأسلت يخاطب قريشاً، في توجيه صلاتهم إلى البيت^(١):

فَقُومُوا فَصَلُّوا لِرَبِّكُمْ وَتَمَسَّحُوا بِأَرْكَانِ هَذَا الْبَيْتِ بَيْنَ الْأَخْشَبِ^(٢)

على أن دلالة الصلاة على الدعاء لم تقتصر على صلاة العربي الوثني، وإنما هي بهذا المعنى في صلاة النصراني، فعدي بن زيد العبادي يذكر في بيت من الشعر أن راهب النصراني كان يرفع صوته بصلاته، وهو يدعو متضرعاً؛ فيقول^(٣):

إِنِّي وَاللَّهِ فَأَقْبَلُ حَلْفَتِي لِأَيُّنْ لُكُلْمَا صَلَّيْ جَارُ

وهي بهذا المعنى في شعر الأعشى، وإن كان ذكر أن الراهب يراوح في صلاته بين عمليتين: السجود مرة، والتضرع مرة أخرى؛ يقول^(٤):

وَمَا أَتَيْتُ عَلَى هَيْكَلٍ بِنَاهُ وَصَلَّيْتُ فِيهِ وَصَلَّارَا
يُراوِجُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِكِ كِ طَوْرًا سَجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارَا

وهي لا تعدو هذا المعنى في البيت التالي لورقة بن نوفل، إذ لا يوجد فيه ما يدل على خلاف ذلك، وهو قوله^(٥):

أَقُولُ إِذَا صَلَّيْتُ فِي كُلِّ بَيْعَةٍ تَبَارَكْتَ فَذَكَرْتُ بِاسْمِكَ دَاعِيَا

وتأتي الأخبار التي يرويها الرواة عن عرب الجاهلية رافداً آخر بشدأ أزر الشعر في معرفتهم الصلاة، بمعنى الدعاء، معرفة صوروا فيها شعائر صلاتهم في حالة الموت؛ ذكر ابن حبيب أن العرب "كانوا يكفنون موتاهم، ويصلون عليهم. وكانت صلاتهم أن يحمل الميت على سرير ثم يقوم وليه فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه ثم يقول: "عليك رحمة الله"، ثم يدفن^(٦)... قال رجل من كلب، جاهلي، لأبيه^(٧):

أَعْمَرُوا! إِنْ هَلَكْتَ وَكُنْتُ حَيًّا فَإِنِّي مُكْثِرٌ لَكَ مِنْ صَلَاتِي
وَأَجْعَلُ نِصْفَ مَالِي لِابْنِ سَلَمَى حَيَاتِي إِنْ حَيَّيْتُ وَفِي مَمَاتِي^(٨)

وثمة خبر آخر يرويهِ اليعقوبي عن انتشار عبادة الأصنام في العرب، وأن عبادتهم لها إنما لتقربهم إلى الله زلفى، يشير إلى أن صلاتهم لها دعاء بالمعنى الذي يفهم منه أنه وسيلة يتوسلون به إلى الله تعالى؛ فيقول^(٩): "قَلَمَا

(١) أبو قيس، صيفي بن الأسلت، ديوانه، دراسة وجمع وتحقيق حسن محمد باجودة، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٣م، ص: ٦٩.

(٢) صلوا: ادعوا. والأخشب: أراد الأخشبين، وهما جبلا مكة، جمعها مع ما حولهما.

(٣) عدي بن زيد العبادي، ديوانه، تحقيق وجمع محمد جبار المعبيد، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، ١٩٦٥م، ص: ٦١.

(٤) ديوانه: ٥٣.

(٥) حسين، غسان عزيز، ورقة بن نوفل مبشر الرسول: عصره، حياته، شعره، جمع وتحقيق وشرح ودراسة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م، ص: ١٥٤.

(٦) في الشهرستاني، أبو الفتح، محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت ٥٤٨هـ)، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م، ٣٤٩:٢؛ ويثني عليه ثم يدفن؛ ثم يقول: عليك رحمة الله وبركاته.

(٧) في المصدر السابق: ٣٤٩:٢؛ قال رجل من كلب في الجاهلية لابن ابن له.

(٨) ابن حبيب، أبو جعفر، محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ)، المحيّر، تصحيح إليزه ليختن شنيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت)، ص: ٣٢٠ - ٣٢١، وانظر الشهرستاني، الملل والنحل ٣٤٩:٢، وعلي، جواد، تاريخ الصلاة في الإسلام: ١٧.

(٩) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٩٢هـ)، تاريخ اليعقوبي، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٣٨٩هـ = ١٩٦٠م، ٢٥٤:١ - ٢٥٥.

رأت العرب ذلك^(١) اتخذت أصناماً، فجعلت كل قبيلة لها صنماً يصلّون له تقريباً إلى الله، فيما يقولون". ويقوي هذا الخبر في غايتهم من عبادة الأصنام، وفي دلالة صلاتهم على معنى الدعاء الخبر الذي يرويه ياقوت الحموي عن أصل عبادة العرب للحجارة شغفاً منهم بأصنام الحرم؛ يقول^(٢): "ولقد بلغ من تعظيم العرب لمكة أنهم كانوا ... إذا أرادوا الانصراف أخذ الرجل منهم حجراً من حجارة الحرم فحنته على صورة أصنام البيت فيحفي به في طريقه ويجعله قبلة ويطوفون حوله ويتمسحون به ويصلّون له تشبيهاً له بأصنام البيت". ويذكر اليعقوبي في موضع آخر يستكمل به الخبر السابق أن صلاتهم على هذا النحو إنما تكون في موسم الحج، وهذا مؤشر يدل على أنهم كانوا يصلّون مجموعات، كل مجموعة (أي قبيلة) تدعو (تصلّي لـ) صنمها بدعاء (بصلاة) خاص (خاصة) بها، إلى أن تتحد مجموعات في جماعة واحدة في توجهها إلى مكة، ملتبية تلبّيات متعددة^(٣)، وبيّن هيئة صلاتهم تلبّياً يحتمل أمرين، الأمر الأول: أن كل قبيلة كانت تقف في صلاتها عند صنمها بالمعنى اللغوي للوقوف وهو ضدّ الجلوس أي القيام، والأمر الثاني: أنها كانت تمرّ على صنمها فتتوجّه بصلاتها إليه، دون أن يكون الوقوف شرطاً في كيفية مرورها، لأنهم قد يكونون مشاة أو ركباناً^(٤)، يقول^(٥): "فكانت العرب، إذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كل قبيلة عند صنمها، وصلّوا عنده، ثم تلبّوا حتى تقدّموا مكة".

ومما يؤكد أن العرب فهموا الصلاة بمعنى الدعاء فهماً يوئل إلى تلك النصوص التي كان العربي الجاهلي يردّها متوسلاً في طوافه حول الأصنام، بحيث نستطيع أن نقول إن هذه التوسلات هي أدعية كان العربي الجاهلي يصلّي (يدعو) بها في مناجاته آلهته، لتتفعه ولتتحقق له ما يريده منها وبيتيه، يقول جواد علي^(٦): "لم يصل الإنسان القديم لمجرد الاعتراف بعظمة الأصنام أو الآلهة أو الإله، بل صلّى أيضاً لأنانية فيه، لاعتقاده بأن صلاته هذه ذات نفع وفائدة له، تجلب له الخير والمال والصحة، ولهذا كان يتهاكك عليها ويكثر منها عند نزول النوائب عليه، وحلول المصائب به، اعتقاداً منه بأنها سترضي الآلهة، فترحمه، وتساعد به بإجابة طلبه في صلواته تلك" فمن ذلك قول الأزدي تتوسّل في تلبّيتها^(٧):

يَا رَبَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا سَعَيْنَا
بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَتَيْنِ قَيْنَا
وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَالَيْنَا

- (١) أن عبادة قريش وخزاعة لها إنما لتقربهم إلى الله تعالى.
- (٢) ياقوت الحموي، شهاب الدين، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م، ٢١٤:٥.
- (٣) انظر ما ذكره البيهقي، عادل جاسم، أصالة الوحدة العربية في أقدم النصوص الدينية (تلبّيات العرب)، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، السنة ٤، العدد ٢٨، حزيران (يونيو) ١٩٨١م، ص: ٤٢ - ٤٣ عن تلبّيات العرب.
- (٤) انظر قطرب، أبو علي، محمد بن المستنير (ت بعد ٢٠٦هـ)، الأزمنة وتلبّية الجاهلية، تحقيق حنا جميل حداد، ط ١، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م، ص: ١١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، واليعقوبي، تاريخه ٢٥٦:١.
- (٥) اليعقوبي، تاريخه ٢٥٥:١.
- (٦) تاريخ الصلاة في الإسلام: ١٩، وانظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٨١:٦ - ١٨٣، ٣٢٤ - ٣٢٨، ٣٧٥ - ٣٧٨.
- (٧) قطرب، الأزمنة وتلبّية الجاهلية: ١٢٢، وانظر العمري، ليلي، التلبّية عند عرب الجاهلية: جمع وتحقيق، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، عمّان، المجلد ٢٩، العدد ٢، ربيع الأول ١٤٢٣هـ = حزيران ٢٠٠٢م، ص: ٣٥٤. وكان الأزدي يعبدون مناة والسعيدة، انظر ابن حبيب، المحبر: ٣١٦.

وشبيه بهذا ما حفظته لنا المصادر الكلاسيكية من مقطوعة واحدة من الصلاة التي كانت تنلى أثناء الحج، والتي كان عرب الجاهلية يرددونها في إفاضةهم إلى منى، وهي:

أَشْرَقَ شَيْبٌ رُحَى
كَيْمًا نَغِيْرُ^(١)

ويروي الرواة خبراً عن زيد بن عمرو بن نفيل - وكان على دين إبراهيم عليه السلام - يفيد أنه "كان يصلي إلى الكعبة ويقول: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم"^(٢)، فالخبر صريح الدلالة على أن الصلاة إلى الكعبة كانت تعني في ذلك الوقت القول بالدعاء، وقد تأتت دلالاته من قول الرواة: "يصلي ... ويقول". ويعضد هذا الخبر خبر آخر يشير إلى صلاة (دعاء) زيد عند البيت، أنه "كان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قال"^(٣):

أَبْنَيْكَ حَقًّا حَقًّا نَعْبُدُكَ وَرَقًّا وَرَقًّا
عُدْتُ بِمَا عَادَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ وَهُوَ قَائِمٌ

إذ قال:

أَنْفِي لَكَ اللَّهُمَّ عَانٍ رَاغِمٍ مَهْمًا تُجَشِّمُنِي فَإِنِّي جَائِمٌ
الْبِرُّ أَبْغِي لَا الْخَالُ لَيْسَ مُهْجَرٌ كَمَنْ قَالَ

وفي رواية أخرى للخبر تذكر صلاة زيد ووقتها، بتفصيل يبين الهيئة التي أداها فيها أنها تتكون من ركعة بسجدة، فقد روي أنه كان يراقب الشمس فإذا زالت استقبل الكعبة فصلى ركعة سجدة ثم يقول هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلي له ... وإنما أصلي لهذا البيت حتى أموت"^(٤). ولو اقتصر أداء زيد على الصلاة والسجود - دون الركوع - لقلت إن صلاته هنا بمعنى الدعاء، وإن سجوده يحتمل أمرين، الأمر الأول أن يكون زيد قد تأثر بسجود عرب الجاهلية لمملوكهم، وبذلك تكون هذه اللفظة أخذت مفهومها من المفهوم الذي عرفه الجاهليون للسجود^(٥)، والأمر الثاني ما ذكر أنه كان على دين إبراهيم عليه السلام، وأن صورة العبادة في هذا الدين لم تكن حاضرة في مخيلته - لما روي عنه أنه خرج من مكة فضرِب في الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم^(٦) - فحاول

(١) الأزرقي، أبو الوليد، محمد بن عبد الله (ت ٢٥٠هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملخص، ط ٨، مكتبة الثقافة، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م، ١: ١٨٩، وانظر فارمر، هنري جورج، تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة جرجيس فتح الله المحلمي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٢٨هـ، ص: ٤٦. وثبير: أعظم جبال مكة، وهو على يسار الذهاب إلى منى، عُرفَ برجل من هذيل اسمه ثبير دفن فيه. البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ)، حاشية على شرح بابت سعاد لابن هشام، تحقيق نظيف محرم خواجه، دار فرانتس شتاينر، فريبادن، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م، ٢: ٥٥٩، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (ثبير).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٢: ٢٢١، وانظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٤٧٣.

(٣) ابن هشام، جمال الدين، أبو محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب (ت ٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٤٥١، وانظر ص: ٢٤٦، وابن كثير، البداية والنهاية ٢: ٢٢٢، وشيخ اليسوعي، شعراء النصرانية: ٦١٩، والجارم، أديان العرب في الجاهلية: ٦٨، ٩٠ - ٩١، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٧٤٤ - ٤٧٥ باختلاف في الرواية فيها.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٢: ٢٢٣، وانظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٤٧٥.

(٥) انظر هذا المعنى في الأعشى، ديوانه: ٥١ على سبيل المثال، وما سيأتي من حديث.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ٢: ٢٢١ - ٢٢٣.

أن يجد طريقة للسجود تخالف سجود الجاهليين من جملة الأشياء التي خالفهم فيها، أو خرج عليهم فيها ولم يقبلها، ولذلك ذكرت بعض الروايات أنه كان يسجد على راحته^(١)، يعزّز ذلك قوله^(٢): "اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحسب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته". ولو أخذنا بالرواية التي تقول^(٣): "ثم يخرّ فيسجد" أنه كان يسجد على شاكلة سجود إبراهيم عليه السلام، للمعنى الذي تؤديه كلمة "يخرّ"^(٤) مع "يسجد"، لقلنا إنه ليس هناك ما يؤيده من الشواهد والقرائن الدالة على ذلك، وإن سجوده بهذا التعبير الذي ذكره الرواة لا يخرج على الاحتمالين اللذين ذكرناهما، ونضيف إليهما احتمالين آخرين أن سجوده على راحة يده محاولة للوصول إلى شكل يرضي فيه تأله الديني، وبعد من قبيل التطور الديني للسجود خاصة وللصلاة عامة، ساعدت الأجواء الدينية توحيدية ووثنية في الأخبار التي ذكرناها، وغيرهما من يهودية ونصرانية، زيد بن عمرو - وربما غيره^(٥) - في الإفادة منها دون تمثيلها للوصول إلى هذا الشكل من السجود، وأن الصلاة التي هي الدعاء يمكن أن تؤدّى في هذه الأطر، يؤيد ذلك ما ذكره الأعشى عن غير هذه الديانة، أن الراهب النصراني كان يراوح في صلاته بين عمليتين: السجود مرة، والتضرّع مرة أخرى، ويدعمه ما روي أن اليهودي كان يسجد على شق وجهه^(٦)، وذلك قول لبدي يصف رجلاً غلبه النعاس فشبهه باليهودي المصلي^(٧):

يَلْمَسُ الْأَخْلَاسُ فِي مَنْزِلِهِ يَبْدُو كَالْيَهُودِيِّ الْمُصَلِّ

وذلك لحكمة اقتضتها ظروف الحياة لتهيئة العربي لمرحلة ما بعد الجاهلية، لتلقّي الشكل الذي استقرت عليه الصلاة في الإسلام، استقراراً مهّد له هذه الظروف - في حياة العربي الجاهلي - تمهيداً قد يكون تدريجياً، أو متداخلاً مع الأدب الأخرى من يهودية أو نصرانية، وقد يكون مضطرباً متعثراً. حتى إذا عانت هذه اللفظة ما عانت لتستقرّ إلى الشكل الذي اقتضته الحكمة الإلهية، جاء الإسلام وكان مجيئه على أرضية واضحة المعالم، راسخة الخطى.

وأما الاحتمال الثاني الذي أضفناه إلى الاحتمالين السابقين، فقد يكون ما ذكر عن صلاة زيد بن عمرو بن نفيل بتفصيل كالتفصيل الذي مرّ، أنه من تصرف الرواة المسلمين لما علموه من صلاة (دعاء) زيد، وسجوده على راحة يده، فأضافوا إليهما الركوع، وجمعوا هذه الأفعال الثلاثة معاً: الصلاة والركوع والسجود، جمعاً ساعدتهم الأخبار التي انتهت إليهم في خروج زيد من مكة يطلب الحنيفية دين إبراهيم^(٨)، وهي أمور لم يعرفها العربي الجاهلي مجتمعة على هذا النحو في سياق الصلاة، والتعليل الذي نرتضيه أنهم يسحبون على الماضي ظواهر هم أنفسهم

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ٢٤٠:١، وانظر ابن حبيب، المحبر: ١٧١، وابن كثير، البداية والنهاية ٢٢١:٢، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٧٣:٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ٢٤٠:١، وانظر المصادر في الحاشية السابقة.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٢٢٣:٢. وقد جاءت هذه العبارة في نهاية الخبر الذي ذكرت فيه قوله: "لَيْلِكَ حَقًّا حَقًّا...".

(٤) خرّ: وقع وسقط.

(٥) ولكن لم تصل إلينا أخبارهم، وإنما اتضحت هذه الأخبار في زيد بن عمرو لأهميتها في الإسلام، واتصالها بالرسول عليه السلام.

(٦) البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ)، خزائن الأدب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط ١ - ٢، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، ومكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الرفاعي، الرياض، ١٩٧٩ م - ١٩٨٦ م، ٣: ٣٧١.

(٧) لبدي بن ربيعة، شرح ديوانه، تحقيق إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢ م، ص: ١٨٣.

(٨) ابن كثير، البداية والنهاية ٢٢١:٢ - ٢٢٣.

يعرفونها لتتمشي مع عقيدة الإسلام...!

ولو اقتصر الخبر الثاني على صلاة زيد وركوعه - دون سجوده - لم تكن نخرج في معنى الصلاة على المعنى الذي ذكرناه، وعن الاحتمالات التأويلية التي ذهبنا إليها في تعليل سجود زيد على راحته، بالاستفادة من معنى الركوع عند عرب الجاهلية^(١).

وتدل أخبار أخرى في نهاية العصر الجاهلي على معرفة العرب بالصلاة، دلالة لا نستطيع أن نؤكد تماماً معنى الصلاة فيها أنه الدعاء، كما لا نستطيع أن ننفي نفياً قاطعاً عدم دلالتها في معناها - في هذه الأخبار - على الدعاء، يعزز ذلك ما يفهم من الخبر التالي أن التوجه في الصلاة إنما قد يكون للكعبة، روى مسلم في صحيحه بسند متصل إلى عبد الله بن الصامت أنه قال^(٢): "قال أبو ذر: يا ابن أخي! صليتُ سنتين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم^(٣). قال: قلت: فأين كنت توجه؟ قال: حيث وجهني الله". ولعل خير ما قيل في التعليل على من كان يستقبل الكعبة في صلاته (دعائه)، تعليق محمد نعيم الجارم على ثلثية زيد بن عمرو بن نفيل السابقة، قال^(٤): "وحكوا في سر مشروعية استقبال الكعبة في الصلاة أن الكعبة من شعائر الله عند العرب أذعن لها أقاصيهم وأدانيتهم وجرت السنة عندهم باستقبالها، فلم يكن هناك معنى للعدول عنها".

وخلاصة القول إن الصلاة بمعنى الدعاء معنى أصيل وجد عند العرب منذ القدم، فقد أشار المفسرون إلى أن أحد المعاني الذي احتملته الصلاة في قوله تعالى في سورة الأعلى^(٥): (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) هو الدعاء^(٦)، وأن مضمون الكلام في الآيات الرابعة عشرة إلى السابعة عشرة من السورة نفسها^(٧)، ومنها هذه الآية قد ورد في الصحف^(٨) الأولى التي بينها سبحانه وتعالى أنها صُحُف إبراهيم خليل الرحمن وصحف موسى بن عمران^(٩).

٢- صلاة الصبح (الفجر):

ويفصح الشعر الجاهلي عن صلاة كان يقوم بها الحنفاء الذين كانوا على دين إبراهيم عليه السلام، ولكن لم تكن

(١) انظر هذا المعنى في لبيد، شرح ديوانه: ١٧١، والناطقة الذبياني، ديوانه (تحقيق رواية الديوان): ٢٣٧، وابن الكلبي، أبو المنذر، هشام ابن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ)، أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تحقيق أحمد زكي، ط٤، دار الكتب والوثائق القومية (مركز تحقيق التراث)، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص: ٤٠.

(٢) مسلم، أبو الحسين، مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٤هـ = ١٩٥٤م، ص: ١٩٢٣، وانظر الجارم، أديان العرب في الجاهلية: ٩٠.

(٣) في مسلم، صحيحه: ١٩٢٠: "صليتُ ... قبل أنلقى رسول الله ... بثلاث سنين".

(٤) أديان العرب في الجاهلية: ٩١.

(٥) الآية: ١٤.

(٦) الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تفسيره = جامع البيان في تفسير القرآن، ط١، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، ١٣٢٧هـ - ١٣٢٩هـ، ٣٠: ١٠٠.

(٧) وهي: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى، بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

(٨) الصُحُف: جمع صحيفة، والمقصود بها كتب إبراهيم وموسى.

(٩) في قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) [سورة الأعلى، الآية: ١٨، ١٩]. المصدر السابق: ٣٠: ١٠١، وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٥٧٧: ٤، وقد علق ابن كثير على رأي ابن جرير الطبري فقال: "وهذا الذي اختاره حسن قوي".

صورة هذه الصلاة واضحة - على ما يبدو - في مخيلة الشاعر الجاهلي، حتى يحدثنا عنها - على الأقل - بعض الحديث يبين هيئة أدائهم لها بما يشعر أنه يميزها على نحو من الأحاء من أنواع الصلوات الأخرى التي كان يقوم بها عرب الجاهلية، وقد يكون للأسباب التي أدت إلى قلّة الشعر الديني الذي وصل إلينا من العصر الجاهلي^(١)، الدور في عدم وضوح أنواع الصلوات الجاهلية، وأشكالها، والمسائل الدينية المتعلقة بها في هذا الشعر، بما في ذلك هذه الصلاة. وإن كنا نستطيع أن نتبين وقت أدائهم لها من الموارد الإسلامية، وكل ما ذكره في حقّها أنهم كانوا يؤدونها في أواخر الليل عند بزوغ الصباح، وهي الصلاة التي يعرفها المسلمون أنها صلاة الفجر؛ يقول جبران الخوذ النميري في النساء^(٢):

ولمّا رأى الصُّبحَ بادرَ، ضوّةً ديبُ قَطَا البَطْحَاءِ، أوْ هُنَّ أَقْطَفُ
وأدركنَ أعجازاً مِنَ اللَّيْلِ، بَعْدَما أقامَ الصَّلَاةَ العابدُ المتَحَنِّفُ

ويقول ابن مقبل في البيت التالي، إذا أخذنا برواية البكري له، في سياق وصفه لأصوات الذبّان وغنة طيراتها في العشب^(٣):

كَأَنَّ صَوَانِحَ ذِبَابٍ— بُعِثَ الصَّلَاةَ صَهِيلُ الْخُصْنِ

وكان فسره فقال: "... وقوله: بُعِثَ الصَّلَاةَ: يعني صلاة الفجر، وهو وقت حركة الطير؛ وذلك دون أن نشك في تدخل الرواة في تغيير رواية بعض ألفاظه، إذا أخذنا في اعتبارنا احتمالين اثنين نذهب إليهما، الأول منهما أن ابن مقبل شاعر مخضرم أدرك الإسلام، وأن من الطبيعي أن يتأثر بتعاليمه بغض النظر عن درجة تأثره به، وعليه فقد يكون عاد إلى البيت ورواه رواية ثانية بعد إسلامه، عودة واعم فيها بين أمرين، بين مسابرة - ولو في الظاهر - لتعاليم الدين الجديد للصلاة واحد منها، وبين إبقائه - في داخله - على المفاهيم الجاهلية التي لم يستطع أن يتحلل من ذكرها تحللاً تاماً^(٤)، إذ لم يكن تأثره بالإسلام "تأثراً جوهرياً يمتد إلى الفهم الإسلامي للحياة وعلاقاتها، أو كانت ممارسته للحياة الإسلامية من القلة والضلالة بحيث لم تؤثر تأثيراً جذرياً في جوانب تفكيره ومناحي علاقته"^(٥). والثاني منهما قد يكون رواه هذه الرواية في الجاهلية متأثراً بالديانة الإبراهيمية، تأثيراً من هذه الصلاة فيها فأبقى عليها في الإسلام لأنها وافقت في وقتها صلاة الفجر فيه.

ولم تكن الصلاة قبل مطلع الشمس تقتصر على صلاة العربي الوثني، وإنما كان أصحاب الديانات الأخرى يصلّون في هذا الوقت، وإن لم يشر الشعر الجاهلي صراحة إلى صلاة النصارى فيه، إلا أنه ذكر أن النواقيس كانت

(١) انظر هذه الأسباب في الجبوري، "المستشرقون والشعر الجاهلي"، ٩٧ - ٩٩، والحوافي، الحياة العربية: ٢٧٨ - ٢٨٥.

(٢) جبران الخوذ النميري، ديوانه، رواية أبي سعيد السكري، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٠هـ = ١٩٣١م، ص: ٢٢.

(٣) البكري، أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ)، سمط اللآلي، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي، ط٢، دار الحديث، بيروت، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م، ص: ٦٨٠، ورواية ابن مقبل، تميم بن أبي، ديوانه، تحقيق عزّة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م، ص: ٢٠٨، "كان صَوَاهِلُ" وَقَبِيلُ الصَّبَاحِ صَهِيلٌ".

(٤) انظر دراسة في هذا الموضوع: العمري، ليلى، المياه في شعر تميم بن أبي بن مقبل: قراءة تأويلية، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، عمّان، المجلد ٣٢، العدد ١، ذو الحجة ١٤٢٥هـ = شباط ٢٠٠٥م، ص: ١٦٢ - ١٨٨، وديوانه، المقدمة: ٨ - ١٠.

(٥) حذاد، خلدون مرعي إبراهيم، ديوان ابن مقبل: دراسة لغوية (رسالة ماجستير)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دائرة اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك، ١٩٩١م، ص: ٨.

تقرع قبل مطلع الشمس، وهي لا تقرع إلا للصلاة^(١)؛ يقول الأعشى يذكر شربه الخمر على قرع النواقيس في هذا الوقت^(٢):

وَكَأْسِ كَعَيْنِ الدِّيكِ بَاكَرَتْ حَدَّهَا بِفَيْتَانِ صَيْدَقِ وَالنَّوَاقِيسُ تُضْرَبُ

وبشير المرقش الأكبر إلى قرع النواقيس بعد الهدوء إذاناً بدنو الفجر وحلول وقت الصلاة^(٣)؛ فيقول^(٤):

وَتَسْمَعُ تَرَقَاءَ مِنَ الْبُومِ حَوْلَنَا كَمَا ضُرِبَتْ بَعْدَ الْهُدُوءِ النَّوَاقِيسُ

ولم يكن من العبث أن ذكر الأسود بن يعفر هذا الوقت في شرائه الخمر، ولم تكن النواقيس قرعت بعد، إلا ليدل على قرب قرعها في الوقت الذي حدده وهو "قبل الصباح" في قوله^(٥):

وَقَدْ سَبَّأْتُ لِفَيْتَانِ ذَوِي كَرَمٍ قَبْلَ الصَّبَاحِ وَلَمَّا تُقْرَعُ النَّفْسُ

٣- صلاتا الضحى والعشاء:

ومارس العرب من أنواع الصلوات: صلاة الضحى، وتندر الأخبار التي تزودنا بمعلومات عن هذه الصلاة، وكل ما استطعنا الوصول إليه في بيان أدائهم لها، أنهم كانوا يؤدونها على نحو يشبه استقبال الشمس في وقت الضحى بالجلوس أمامها^(٦)؛ ذكر الأسقع الليثي^(٧) أنه خرج إلى والده، فوجده جالسا مستقبلاً الشمس ضحى^(٨)، وعلق جواد علي الخبر فقال^(٩): "وإذا تذكرنا ما أورده أهل الأخبار عن صلاة الضحى، وهي صلاة كانت تعرفها قريش، ولم تنكرها، أمكننا الربط بين استقبال الشمس ضحى وبين هذه الصلاة". والخبر الذي يشير إليه جواد علي برويه أهل السيرة عن صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه "كان (صلى الله عليه وسلم) يخرج إلى الكعبة أول النهار فيصلّي صلاة الضحى، وكانت صلاة لا تنكرها قريش، وكان إذا صلّى في سائر اليوم بعد ذلك قعد عليّ أو زيد رضي الله عنهما يرصدانه"^(١٠)؛ فهذا الخبر إن لم ينصّ على وجود صلاة الضحى عند الجاهليين، إلا أنه يذكر أن قريشاً كانت تعرفها، ولذلك لم تنكرها، وتركت الرسول (صلى الله عليه وسلم) يصلّيها^(١١).

(١) انظر ما سيأتي من حديث في مستلزمات الصلاة. وابن هشام، السيرة النبوية ١: ١٥٤ - ١٥٥، والبخاري، صحيحه ١: ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) ديوانه: ٢٠٣.

(٣) انظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٦٥٩.

(٤) شعره: ٨٧٦.

(٥) الأسود بن يعفر، ديوانه، صنعة نوري حمودي القيسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م، ص: ٤١.

(٦) سلامة، قريش قبل الإسلام: ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٧) الأسقع الليثي: والد وائلة بن الأسقع البكري الليثي الصحابي المشهور. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٨٣هـ - ١٣٩٢هـ =

١٩٧٠م - ١٩٧٢م، ١: ٥٨٥.

(٨) المصدر السابق ١: ٥٨٥، وانظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٥٦.

(٩) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٥٦ - ٥٧.

(١٠) المقرئ، تقي الدين، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، إمتاع الأسماع بما للنبي (صلى الله عليه وسلم) من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق وتعليق محمد عبد الحميد النميسي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م، ١: ٣٤، وانظر علي،

جواد، تاريخ الصلاة في الإسلام: ١٨.

(١١) انظر علي، جواد، تاريخ الصلاة في الإسلام: ١٨.

وذكر هذه الصلاة وصلاة العشاء الأعشى في مديحه للنبي (صلى الله عليه وسلم)، فقال^(١):

وَصَلَّ عَلَى حِينِ الْعِشَاءِ وَالضُّحَى
وَلَا تَحْمَدُ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاحْمَدَا

وإن تكن مناسبة القصيدة التي منها هذا البيت واضحة الدلالة على أن الأعشى قد أدرك الإسلام^(٢) - ولكنه كما يذكر الرواة لم يسلم^(٣) - إلا أنني لا أستطيع من وجه أن أبرئ القصيدة من تهمة الشك في تدخل الرواة فيها، في القسم الذي يتعلق بمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)^(٤) - والذي منه هذا البيت حتى أشك في جاهليته - لما يبدو عليه من ميسحة إسلامية تظهر في ألفاظه ومعانيه، خاصة في تأثره ببعض آيات القرآن، وقد أشار إلى ذلك محمد حسين في شرحه لديوان الأعشى؛ فقال^(٥): "والقصيدة مروية في كثير من كتب الأدب. ولكن العجيب من أمرها أن القسم الثاني منها، الذي خص فيه النبي بالمدح، يريب الباحث لسببين. فهو أضعف بكثير من الشطر الأول، يبلغ الضعف في أبياته حد الركافة والتفاهة. ثم هو متأثر ببعض آيات القرآن في معناها أو في ألفاظها، أو هو على الأقل يصور الأعشى وقد ألم بتعاليم الإسلام إماماً حسناً، بما يناقض زعم الرواة أنه عاد حين علم أن الإسلام يحرم الخمر". ثم يأخذ بضرب الأمثلة على تأثر هذا القسم بالقرآن، فذكر أن هذا البيت متأثر بقوله تعالى^(٦): (وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعِشَاءِ وَالْإِكْرَارِ). وبذلك يكون ما ورد في بيت الأعشى من إشارة صريحة إلى صلاتي الضحى^(٧) والعشاء^(٨) إنما تأثر بما جاء به الإسلام، إذ يوجد تقارب في المعنى الوقتي الذي أفادته كلمتا الضحى والإكبار، وكلمتا العشاء والعشي في بيت الأعشى والآية القرآنية.

ومن وجه آخر لا أستطيع أن أنفي جاهلية بيت الأعشى نفياً قاطعاً، فهو إن أدى خدمة للرواة في المعنى الذي حمله عجز البيت، إلا أنني استنتيت صدره من هذه الخدمة الصريحة، فمع أنه وافق في معناه ما جاء به الإسلام من أنواع الصلوات كصلاة الضحى والعشي، إلا أن هاتين الصلاتين لهما أصولهما الراسخة - أو ما يماثلهما - في الحياة الدينية لعرب الجاهلية، استطعنا أن نصل إليها من بصيص الأخبار التي عثرنا عليها، كما في الخبر الذي ذكرناه عن الأسقع الليثي في صلاة الضحى أن قريشاً كانت تؤدّيها على نحو يشبه استقبال الشمس بالجلوس أمامها، والخبر الذي يدل على معرفة قريش بهذه الصلاة بحيث لم تكن تتكررها، والخبر الذي أورده عن زيد بن عمرو بن نفيل في صلاته مستقبلاً للكعبة عند زوال الشمس ما يقارب صلاة العشي في الإسلام، فلما كانت الموافقة لما في الجاهلية حاصلة في المعنى تدخل الرواة - على الأرجح - في إعادة صياغة بيت الأعشى، فاستبدلوا بالكلمات الجاهلية كلمات تؤدي معاني إسلامية كما في عجز البيت، واستبقوا المعاني الجاهلية التي وافقت المعاني الإسلامية

(١) ديوانه: ١٣٧. وسيرد البيت برواية أخرى عن ابن منظور، لسان العرب: (سبح)، وفسره فيه فقال: يعني الصلاة بالصباح والمساء.

(٢) انظر تعليق محمد محمد حسين على القصيدة في ديوان الأعشى: ١٣٤.

(٣) الأصفهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ)، الأغاني، شرحه عبد أ. علي مهنا، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت،

١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، ٩: ١٤٧ - ١٤٨، والمرزباني، أبو عبيد الله، محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ)، معجم الشعراء، تحقيق فاروق

اسليم، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٥م، ص: ٣٨٣.

(٤) وهو من البيت الثاني عشر من القصيدة إلى نهايتها.

(٥) ص: ١٣٤.

(٦) آل عمران، الآية: ٤١، وكذلك بقوله تعالى: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشَاءِ وَالْإِكْرَارِ) [غافر، الآية: ٥٥]. وفسر ابن كثير (تفسير القرآن

العظيم ٩٦: ٤) العشي: أواخر النهار وأوائل الليل، وفسر الإكبار: أوائل النهار وأواخر الليل.

(٧) الضحى: حين تطلع الشمس فيصفو ضوءها، أي حين تشرق الشمس.

(٨) العشاء: أول الظلام من الليل، وقيل: هو من صلاة المغرب إلى العتمة، أي حين يغيب الشفق.

في صدر البيت، ولكن بصياغة جديدة بلغت حدّاً من الضعف والركاكة توحى أنها من عمل الرواة المسلمين، وليست من أسلوب الأعشى في شيء في جاهلية المعنى والمبنى؛ إذ مَنْ يقرأ البيت لا يستطيع أن يتبين للوهلة الأولى أن المقصود بالصلاة فيه الدعاء، لأنها ارتبطت بكلمتين أخريين هما العشيات والضحي، وهما صلاتان واضحتان في عبادة المرء المسلم، ما يوحي له أن الصلاة هنا هي الصلاة الحقيقية المعروفة في الإسلام، التي يشكل الدعاء جزءاً منها، ولأن عجز البيت جاء معزّزاً آخر في معناه لهذا الرأي، في جعل شكر المرء لله لا للشيطان، بما يستقيم في سياقه مع سياق المعاني التي وردت في صدر البيت.

٤ - المكاء والتّصديّة:

وتجاوز العرب صلاتهم بالدعاء - عند البيت - إلى صلاة اتخذت شكلين في أدائهم لها، الصوت (المكاء)^(١) وهو يخرج على هيئة الصغير، والحركة (التّصديّة)^(٢) وهي التصفيق باليدين^(٣)؛ قال الطبري^(٤): "كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفّرون [بأفواههم]^(٥) ويصفّقون [بأيديهم]^(٦)". ويُفهم من بعض الروايات أن طوافهم بالبيت على النحو المذكور إنما يعني أنهم كانوا يؤدّون صلاتهم بهذه الصورة أثناء طوافهم حوله^(٧)، وذلك قوله تعالى^(٨): (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصَدِيَةً)؛ وقال حسان بن ثابت في هذا المعنى^(٩):

* صَلَاتُهُمُ التَّصَدِيّ والمُكَاء *

ونذكر هذا المعنى عمرو بن الإطنابة فقال^(١٠):

وظَلَّلُوا جَمِيعاً لَهُمْ ضَجَّةٌ مَكَاءً لَدَى الْبَيْتِ بِالتَّصَدِيَةِ^(١١)

ويفسّر الرواة هيئة صغير هم (المكؤ) تفسيرات تردّ إلى فكرة واحدة، وهي النفخ من الفم في العضو الذي

(١) المكاء، مخفّف: الصغير. مكا الإنسان: صفّر يفيه. ابن منظور، لسان العرب: (مكا).

(٢) التّصديّة: التصفيق. وصدّى الرجل: صفّق بيديه؛ قيل: صدّى يصدّي تصديّة، إذا صفّق، وهو من مُحَوَّلٍ للتضعيف. انظر الطبري، تفسيره (شاكراً) ٥٢٢:١٣، والقرطبي، تفسيره ٤٠٠:٧، وابن منظور، لسان العرب: (صدى). وقيل: التّصديّة تفعلّة من الصدّي، وهو الصوت الذي يزده عليك الجبل، فيكون في الأصل معتل اللام. ابن منظور، لسان العرب: (صدى)، وانظر النيسابوري، نظام الدين، الحسن بن محمد بن حسين (ت بعد ٨٥٠هـ)، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان (بهامش تفسير الطبري)، ط١، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، ١٣٢٧هـ - ١٣٢٩هـ، ١٥٧:٩. وقيل: أو من صدّ يصدّ مضاعفاً أي صاح فقلبت الدال الأخيرة ياء. النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ١٥٧:٩.

(٣) الطبري، تفسيره (شاكراً) ٥٢٢:١٣ - ٥٢٧، وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣٧٠:٢ - ٣٧١، وسلامة، قريش قبل الإسلام: ٢٩٩.

(٤) تفسيره (شاكراً) ٥٢٤:١٣، وانظر حسان بن ثابت، ديوانه ٤٤١:١، والجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط٢، دار الجليل، ودار الفكر، بيروت، (د.ت)، ١٢٣:١، وياقوت الحموي، معجم البلدان ٢١١:٥، والقرطبي، تفسيره ٤٠٠:٧، وابن منظور، لسان العرب: (مكا)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣٧٠:٢، ودلو، برهان الدين، جزيرة العرب قبل الإسلام: التاريخ الاقتصادي، الاجتماعي، الثقافي، والسياسي، ط٢، دار الفارابي، بيروت، والمؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، ٢٠٠٤م، ص: ٤٩٦، وعلي، جواد، تاريخ الصلاة في الإسلام: ١٥.

(٥) زيادة من ابن منظور، لسان العرب: (مكا).

(٦) زيادة من المصدر السابق: (مكا).

(٧) الطبري، تفسيره (شاكراً) ٥٢١:١٣، ٥٢٣، وانظر الأسد، ناصر الدين، القيان والغناء في العصر الجاهلي، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، ص: ١٤٤، وسلامة، قريش قبل الإسلام: ٢٩٩.

(٨) سورة الأنفال، الآية: ٣٥.

(٩) ديوانه (زيادات من غير مخطوطات الديوان) ٤٤١:١، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (مكا).

(١٠) القرطبي، تفسيره ٤٠١:٧.

(١١) أي بالتصفيق.

يستخدمه الشخص لذلك، فيحدث أثر ذلك الصوت، وهو الصفير. وقد اختلف الرواة في التعبير عن العضو^(١) الذي يستخدمونه لهذا الغرض، وفي كيفية استخدامه، وأقرب هذه الروايات إلى الواقع مما نعرفه عن مثل هذا الأمر، تلك التي أشارت إلى استخدامهم الأصابع في هذه العملية؛ فقال ابن منظور في تفسيره المكاء^(٢): "هو أن يجمع بين أصابع يديه ثم يُدخلها في فيه ثم يصفر فيها". دون أن يذكر عدد الأصابع التي يجعلها الطائف أو المصلي منهم في فمه، وقد كان النيسابوري أكثر دقة منهم في وصفه الأصابع التي يصفر فيها المصلي، بما يشير إلى نفيه وضع المصلي أصابع يديه كلها في فمه، إذ ذكر أن المصلي "يجعل بعض أصابع اليمين وبعض أصابع الشمال في الفم ثم يصفر به"^(٣). وتصف رواية ثالثة طريقة وضعهم أصابعهم في فمهم ذكرها الطبري في تفسيره المكاء؛ فقال إنهم^(٤): "كانوا يشبكون بين أصابعهم ويصفرون بها". وتذكر رواية أخرى كيفية حدوث الصوت بهذه العملية أنهم كانوا ينفخون الهواء من بين الأصابع فيحدث هذا الصفير^(٥) الذي يشيرون إليه، وإنما كان ذلك نتيجة لتضاغط الهواء في الفم وخروجه منه على النحو المذكور.

ولم يكن من العيب أن قام العرب بالصفير في صلاتهم بالصورة التي ذكرونها، لأسباب، لأنهم رأوا المكاء - وهو طائر معروف^(٦) - فقدوه في الطريقة التي يخرج فيها صوته، فقد ذكر ابن منظور أن المكاء "سُمي بذلك لأنه يجمع يديه ثم يصفر فيها صفيراً حسناً"^(٧). ولأنهم أرادوا تقليده في صوته إذ بلغ من دقتهم في الوصول بصوتهم إلى تصويت يشبه صوت هذا الطائر^(٨) أن وصف الرواة صفيرهم في صلاتهم؛ فقالوا^(٩): "فكانهم كانوا يحكون صوت المكاء"، وكان من الشدة بحيث ذكروا ما كان يفعله أحد الصحابة وهو قيس بن مخرمة^(١٠) في طوافه بالبيت أنه كان "يمكو حول البيت، فيسمع ذلك من حراء"^(١١)، واستشهدوا بقول عنتره يصف رجلاً طعنه^(١٢):

(١) كاستعمال اليدين، هكذا بالعموم دون تعيين. انظر الطبري، تفسيره (شاکر) ٥٢١:١٣، ٥٢٤، ٥٢٦. وقد يعبرون عن استعمالهم اليدين باستعمالهم الكفين، أو أحدهما. انظر المصدر السابق: ٥٢٣، ٥٢٦، والنيسابوري، تفسير غرائب القرآن ١٥٧:٩.

(٢) لسان العرب: (مكا)، وانظر الطبري، تفسيره (شاکر) ٥٢٥:١٣، والقرطبي، تفسيره ٤٠١:٧، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣٧٠:٢.

(٣) تفسير غرائب القرآن ١٥٧:٩.

(٤) تفسيره (شاکر) ٥٢٥:١٣. وزاد النيسابوري (تفسير غرائب القرآن ١٥٧:٩) في نهاية الخبر: "ويصفقون"، وفي مناسبتة ذكر أنهم كانوا يطوفون بالبيت غرة وهم على تلك الحالة المذكورة في المتن، وانظر علي، جواد، تاريخ الصلاة في الإسلام: ١٦.

(٥) الطبري، تفسيره (شاکر) ٥٢٥:١٣. وانظر نفخهم في الكفين (اليدين) في المصدر السابق: ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٦، والنيسابوري، تفسير غرائب القرآن ١٥٧:٩.

(٦) المكاء: طائر في ضرب القنبرة إلا أن في جناحيه بقلًا. وقيل: المكاء طائر يألف الرف. ابن منظور، لسان العرب: (مكا). وقيل، هو: طير أبيض يكون بأرض الحجاز. الطبري، تفسيره (شاکر) ٥٢٦:١٣، والقرطبي، تفسيره ٤٠٠:٧، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣٧٠:٢.

(٧) لسان العرب: (مكا). واستشهد على ذلك بقول الشاعر:

إِذَا غَرَّةَ الْمَكَاءِ فِي غَيْرِ رَوْضَةٍ، فَوَيْلٌ لَأَهْلِ الشَّاءِ وَالْخُمُرَاتِ!

وانظر القرطبي، تفسيره ٤٠٠:٧.

(٨) النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ١٥٧:٩، وانظر القرطبي، تفسيره ٤٠٠:٧.

(٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢١١:٥.

(١٠) هو قيس بن مخرمة بن عبد مناف: أحد الصحابة، وكان من المؤلفة قلوبهم، ولد عام الفيل عام ولد الرسول صلى الله عليه وسلم. ابن حجر، الإصابة ٥٠١:٢.

(١١) الجاحظ، البيان والتبيين ١٢٣:١.

(١٢) عنتره بن شداد، ديوانه، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، ط٢، المكتبة الإسلامية، بيروت، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م، ص: ٢٠٧، وانظر الطبري، تفسيره (شاکر) ٥٢١:١٣، والقرطبي، تفسيره ٤٠٠:٧.

وَحَلِيلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجْدَلًا تَمَكُّو فَرِيصَتَهُ كَشَيْثِ الْأَعْلَمِ

ويهيئ لي أن كانت للعربي القدرة على التحكم بطبيعة صوته بالتحكم بمقدار الهواء المتضاغط في فمه، فيُخرج منه - بالطريقة التي أشرنا إليها - القَدْر الذي يمنحه نغمة معينة تشبه نغمة هذا الطائر؛ يقول القرطبي^(١): "المكء الصغير، على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكء". ويتبين من رواية أخرى - في غير هذا الموضوع - أن لحن هذا الطائر فيه ما يُشعر بالحنين^(٢)، الأمر الذي يقودني إلى القول إن اختيار العربي لهذا الصوت ووقوعه عليه كان عن علم ودراية، لأن حنينه إلى مكة في إتمام مناسك حجّه لا ينقطع، والوسيلة التي تساعد في التعبير عن حنينه، ووصوله إلى درجة من الوجد والشوق إلى هذا المكان هي تقليد هذا الطائر في صوته، وقد نهيات الظروف للمصلي فعل ذلك، لأنه توافر له في هذه الحالة أمران: المكان والصوت، إذ أن وجود هذا الطائر في الحجاز^(٣) ساعد المصلي على أن يراه بألم عينه، فيأخذ في محاكاته، ولعل محاكاته له تكون في الوقت الذي يصلي فيه ويراه في أن يقول يا قوت في تسمية مكة بهذا الاسم^(٤): "إنما سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجّنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمكّ فيه أي نصفر صغير المكء حول الكعبة".

وأما التصديّة - وهي الشق الآخر الذي تكمل به صلاة العربي حول الكعبة - فقد وصف الرواة كيفية حدوث الصوت بها في تفسيرهم لمعناها؛ فقالوا^(٥): "التصديّة: ضربك يداً على يد لتسمع ذلك إنساناً"، ووصفوا كيفية تصرف العربي بيديه في قيامه بعملية الضرب هذه، في حديثهم عن الأصل اللغوي الذي يردون هذه الكلمة إليه؛ فقالوا^(٦): "صدى: قيل أصله صدّد لأنه يقابل في التصديق صدّ هذا صدّ الآخر أي وجهاهما وجه الكف يقابل وجه الكف الأخرى". وعلى ذلك فالتصديّة المصطلح الذي يقابل التصديق في المعنى نفسه^(٧).

ويختلف الرواة في إقرارهم بصلاة العربي على النحو المذكور، واعتراقهم بها اعترافاً غير مباشر باعتبارها عبادة بالمعنى المفهوم للعبادة في العصر الجاهلي، وأنها عمل ديني كأي عمل ديني لأمة من الأمم بعيداً عن رأي الشرع فيها، وفي رفضها والتكّر لها أن تكون صلاة في ضوء المعايير والأحكام الشرعية التي تضبط صلاة المرء المسلم في عبادته الله تعالى. ويعود اختلافهم إلى أن هؤلاء الرواة الذين أنكروا أن يكون المكء والتصديّة صلاة العربي الجاهلي هم رواة مسلمون، وأن من الطبيعي أن يكون أي رأي يصدر منهم - فيمن يخالف الشرع - نابعاً من التعاليم الدينية في الإسلام، وليس رأيهم في التكرّر لصلاة العربي رأياً تعسفياً، وإنما هو رأي أملاه عليهم الشرع الإسلامي لا يجوز لهم بحال من الأحوال الخروج عليه، على أن رفضهم لهذه الصلاة من وجه معناه من وجه آخر أن هذه الصلاة كانت موجودة في الجاهلية، ولكنها كانت تؤدّى بطريقة تخالف طريقتهم وبتوجه يغيّر توجههم إلى الله تعالى، والدليل على ذلك القرآن الكريم وروايات الرواة؛ أمّا القرآن الكريم فالآية صريحة الدلالة على أن

(١) تفسيره ٤٠٠:٧، وانظر الطبري، تفسيره (شاکر) ٥٢٦:١٢.

(٢) قال ياقوت الحموي (معجم البلدان ٢١١:٥) في هذا الخبر: "قال أعرابي ورّد الحضر فرأى مكءاً يصيح فحنّ إلى بلاده فقال ...".

(٣) انظر ما ذكرناه عنه في الحواشي السابقة.

(٤) المصدر السابق: ٢١٠:٥ - ٢١١.

(٥) ابن منظور، لسان العرب: (صدي).

(٦) المصدر السابق: (صدي).

(٧) انظر المصدر السابق: (صفح) و(صفح).

صلاتهم عند البيت كانت مكاءً وتصديّة، إذ لجأ القرآن إلى أسلوب الحصر باستخدامه أداة النفي والاستثناء في تخصيص هذه الصلاة بهم، وإقرارها في حقهم، وذلك قوله تعالى: (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً). وأما الرواة فإنهم لما رأوا شعائر الصلاة التي أقرّها الشرع لهم ورأوا ما كان يفعله المشركون حول الكعبة، أنكروا أن يكون فعلهم هذا صلاة مقارنة بصلاتهم، لأن الصلاة التي ينبغي أن تسود بعد مجيء الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكانوا أمروا بها هي الصلاة المحمّدية، ولكن لا يمنع رأيهم هذا أن تكون للعربي الجاهلي صلاة وأن تكون مكاءً وتصديّة؛ يقول ابن منظور^(١): "والمكّاء والتّصديّة ليسا بصلاة، ولكن الله عزّ وجلّ أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكّاء والتّصديّة"، لأن إنكارهم لصلاة قائمة تتعارض مع صلاتهم لا يتوقّف على ما هو موجود في العصر الجاهلي فقط، وإنما ينسحب ذلك على كل عصر، فهم ينكرون كل صلاة غير صلاتهم، ففي خبر يرويه القرطبي ينكر على الصوفية صلاتهم أنهم يرقصون فيها ويصفقون، ما يشير إلى جذور هذه الصلاة في العصر الجاهلي؛ يقول بعد تفسيره المكّاء والتّصديّة^(٢): "فيه^(٣) ردّ على الجهال من الصوفية الذين يرقصون ويصفقون ويصعقون. وذلك كلّ منكر يتنزّه عن مثله العقلاء، ويتشبّه فاعله بالمشرّكين فيما كانوا يفعلونه عند البيت".

ولا شك أن إنكار الرواة لهذه الصلاة جعلهم يذكرون آراءً أخرى في تعليلاتهم على تفسير هذه الآية، من شأنها أن تغيب هذه الصلاة عن الواقع، وأن تغاير حقيقة وجودها في العصر الجاهلي، فمن هذه الروايات ما ذكره الطبري في تفسيره المكّاء والتّصديّة؛ فقال^(٤): "كانت قریش يعارضون النبي (صلى الله عليه وسلم) في الطواف [والصلاة عند المسجد الحرام]^(٥) يستهزئون به، يصفرون ويصفقون"، وإنما أرادوا بذلك أن يخلطوا عليه صلاته^(٦)، أو أن يشغلوه عنها^(٧). ويعلّق النيسابوري على هذا القول تعليلاً يُشعر باعتداله بصلاتهم في إطار العصر الجاهلي من ناحية، وبإنكارها عليهم خارج هذا الإطار لعدم توافقها مع تعاليم الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى، والدليل على ذلك قوله^(٨): "فجعل المكّاء والتّصديّة صلاة لهم كقولك زرت الأمير فجعل جفائي صلتني أي أقام الجفاء مقام الصلة". وهو ما كان ذكره قبلاً بتصريح أوضح ينكر هذه الصلاة بقوله^(٩): "أن من كان المكّاء والتّصديّة صلاته فلا صلاة له^(١٠)".

وجعلهم يذكرون آراءً أخرى نستكنه منها محاولتهم توظيف الصوت (الصغير) في أعمال حركية، كإمالة الخدّ

(١) عن ابن عرفة. المصدر السابق: (صدي).

(٢) تفسيره ٤٠٠:٧.

(٣) أي في تفسيره لهما.

(٤) تفسيره (شاذر) ٥٢٤:١٣، وانظر ٥٢٦:١٣، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣٧٠:٢، والنيسابوري، تفسير غرائب القرآن ١٥٩:٧.

(٥) زيادة من النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ١٥٩:٧.

(٦) الطبري، تفسيره (شاذر) ٥٢٥:١٣، وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣٧٠:٢، والنيسابوري، تفسير غرائب القرآن ١٥٧:٩.

(٧) القرطبي، تفسيره ٤٠١:٧.

(٨) النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ١٥٧:٩، وانظر رأي الراغب الأصفهاني، المفردات: (صلا) في هذه الصلاة، إذ قال: "فتسمية صلاتهم مكاءً وتصديّة تنبيه على إبطال صلاتهم وأن فعلهم ذلك لا اعتداه به بل هم في ذلك كطيور تمكؤ وتصدّي".

(٩) النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ١٥٧:٩.

(١٠) قال: وذلك: "كقول العرب ما لفلان عيب إلا السخاء أي من كان السخاء عيبه فلا عيب له".

إمالة تتناسب مع طبيعة اللحن في نغمة الصوت، ومع حينهم إلى مكة، وهما ما ذكرناهما قبلاً؛ يقول الطبري^(١): "فعل ابن عمر، فصفر، وأمال خذّه، وصفّق بيديه". وتوضح هذه الرواية الرواية التي تقول^(٢): "وأمال ابن عمر خذّه إلى جانب". ولعلّ هذه الإمالة كانت موجّهة نحو الكعبة، لما أثير عنهم في تعليقات الرواة على هذه الآية أنهم "كانوا يطوفون بالبيت على الشمال"^(٣).

وبذلك يستبين لنا أن العرب كانوا يصلّون، وأن صلاتهم حول الكعبة كانت مكاءً وتصديّة، وكون صلاتهم كذلك له مبرراته عندنا، ولكن الرواة أخذوا بظاهر اللفظ في المعنى اللغوي له، فأنكروا هذه الصلاة لأنه لا صلاة تؤدّى في الإسلام على هذا النحو، دون محاكمتها في العصر الذي وُجدت فيه، والفكر الأيديولوجي الذي انبثقت منه، والأجواء الدينية التي صدرت منها. وإلاّ فيماذا نفّس وضمّ خدودهم على الأرض في هذه الصلاة على نحو ما يقول ابن عمر^(٤): "إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون"، ألاّ يمكن أن يكون وضمّ خدودهم على الأرض مرحلة تالية لإمالتها على نحو أكثر محاولة منهم للسجود؟ قد يكون ذلك إذا دعمنا حدسنا بالرواية التي ذكرناها عن زيد بن عمرو بن نفيل في سجوده على راحة يده، يقول جواد علي: "فصلاتهم هذه، إذن، صلاة خاصة ذات حركات، وبها سجود على رواية ابن عمر"^(٥).

أمّا التصفيق فلم تشر الروايات لماذا كان العربي يصفّق في صلاته، وبتعبير أوضح في أي الحالات كان يصفّق، وما عدد المرات التي يصفّق بها، أو أن تصفيقه دائم دوام صلاته ... كل هذه الأسئلة لو أُجيب عنها في المظان القديمة لانتهى أي احتمال يمكن أن نذهب إليه، وما دام الوضع كذلك فإن أي احتمال نقول به يكون احتمالاً قائماً في ضوء المعطيات التي نسترشد بها، وقد يكون مؤشراً إيجابياً يحسب لصالح الصلاة في العصر الجاهلي؛ ففي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال^(٦): "التسبيح للرجال والتصفيق للنساء"، وفي رواية "والتصفيح للنساء"^(٧)، وصفّق وصفّح بمعنى واحد^(٨). والتصفيق في صلاة العربي في الجاهلية كان عاماً للنساء والرجال، وليس في المظان إشارة تدل على أنه كان في أوقات محدّدة إلاّ أن يكون في الصلاة، واختصّ في الإسلام بالنساء، وكانت المرأة تفعل ذلك إذا أرادت تنبيه من بحذائها لأمر نابه في صلاتها، وعليه ألاّ يجوز أن يكون تصفيق العرب في صلاتهم في العصر الجاهلي لتنبيه من يقف إلى مكة إلى ضرورة الصلاة في البيت، أو إلى أي أمر من الأمور من شأنه أن يخلط عليهم صلاتهم، فاستفاد الإسلام من الغاية من التصفيق، ومن ثمّ خصّه بالمرأة لأمر متعلّق بطبيعة صوتها، وموقف الإسلام منه؟! إن خلاصة ما يمكن أن يقال عن صلاة العربي الجاهلي القول الذي ذهب إليه النيسابوري بعد تفسيره المكاء والتصديّة؛ قال^(٩): "فالمكاء والتصديّة على هذا نوع عبادة لهم فلهذا وضعوا موضع

(١) تفسيره (شاكر) ٥٢٣:١٣، وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣٧٠:٢.

(٢) الطبري، تفسيره (شاكر) ٥٢٣:١٣.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣٧٠:٢.

(٤) المصدر السابق ٣٧٠:٢.

(٥) تاريخ الصلاة في الإسلام: ١٦.

(٦) البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣١٣هـ، ٨٠:٢.

(٧) المصدر السابق ٨٠:٢.

(٨) ابن منظور، لسان العرب: (صفّح) و(صفّق)، وانظر الطبري، تفسيره (شاكر) ٥٢٢:١٣.

(٩) تفسير غرائب القرآن ١٥٩:٧، وانظر علي، جواد، تاريخ الصلاة في الإسلام: ١٦.

الصلاة بناء على معتقدهم". وهذا ما ذهب إليه القرطبي من قبل في تفسيره الصلاة بمعنى العبادة مستشهداً على ذلك بقول الله تعالى: (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ) الآية؛ قال^(١): "أي عبادتهم". وإن كان علق في موضع آخر على هذه الآية بقوله^(٢): "فكان ذلك عبادة في ظنهم"، فلأنه يروي عن ابن عباس، وإنكاره لهذه الصلاة نابع من تعصبه للإسلام، وهو واضح في قوله: "في ظنهم".

- الصلاة في المفاهيم الدينية الأخرى، (دلالة هذه المفاهيم عليها):

١- الركوع:

ويعد الركوع دليلاً آخر نستدل به على معرفة عرب الجاهلية بالصلاة، معرفة تولدت عندهم من ناحيتين، الأولى عملية، والثانية معنوية؛ أما الأولى فجاءت من المشاهد المحسوس من ملاحظتهم لتقوس ظهر الكبير وانحنائه، فقالوا عنه في هذه الحالة إنه راكع، ولذلك قال اللغويون في معناه^(٣): رَكَعَ الشَّيْخُ، بمعنى انحنى من الكبر، وزاد الزبيدي "وهو أصل معنى الركوع، ومنه أخذ رُكُوعُ الصلاة"^(٤). ثم عمموا القول فذهبوا إلى أن الركوع هو الانحناء^(٥)، وهذا يدل على اتجاه في الدرس اللغوي أن الأصل في المعاني هو المعنى المادي الملموس، وأن الماديات سبقت المعنويات؛ يقول لبيد يصف كبره^(٦):

أَخْبَرَ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ
أَيْبُ كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعٌ

وقد أفادت هذه الملاحظة في وصف ما يشبهها مما يروته، فتجاوزوا أنفسهم في النظر إلى ما يركبون، وهم يشاهدون حركة الفرس وهي تكبو على وجهها (أي تَرَكَعُ)^(٧) في سيرها على الأرض، وفي ذلك يقول بشر بن أبي خازم يذكر فرس حاجب بن زرارته^(٨):

وَأَقْلَتَ حَاجِبٌ تَحْتَ الْعَوَالِي
عَلَى شَوْهَاءَ تَرَكَعَ فِي الظُّرَابِ

كما أفادت هذه الملاحظة في تجاوز التغيرات الجسدية (الحسية)، التي تحصل للإنسان في مرحلة الكبر - بعد تخطيه مرحلة الشباب، وهي العدول عن استقامة الجسم إلى انحناء الظهر - إلى الناحية المعنوية المتعلقة بالمشاعر الدينية، ولم تكن إفادة العرب في هذا التجاوز إفادة مبنية على أساس أن مشاعرهم نبأت، وأن أذواقهم ارتقت، وإنما كانت مبنية على ملاحظتهم التشابه بين الحالتين، إذ أن الوضع الجسدي الذي يصير إليه الإنسان في مرحلة الكبر يعد انعطافاً أو انحناءً له عن مرحلة الشباب، فكما كان الركوع اللفظ المناسب للتعبير عن هذه الحالة، كان كذلك أنسب لفظ استعير من هذه الحالة للتعبير عن الوضع الديني للحنيف في عدوله عن الديانة الوثنية للعرب الجاهليين،

(١) تفسيره ١: ١٦٩.

(٢) المصدر السابق ٧: ٤٠٠.

(٣) ابن منظور، لسان العرب: (ركع)، وانظر "أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٩٠.

(٤) تاج العروس: (ركع).

(٥) ابن منظور، لسان العرب: (ركع). وانظر قول الطبري، تفسيره (شاعر) ١٠٥: ٢ فيما يأتي في حديثنا عن السجود.

(٦) شرح ديوانه: ١٧١.

(٧) ابن دريد، جمهرة اللغة: ٧٧٠. وقال: "ومن الركوع في الصلاة".

(٨) ابن الكلبي، أنساب الخيل: ٤٠، والبيت في بشر بن أبي خازم الأسدي، ديوانه (ملحقات الديوان)، تحقيق عزة حسن، ط٢، دار الشرق

العربي، بيروت، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م، ص: ٢٢٨ برواية أخرى.

منعطفاً فيه عن خط سيرهم الديني، انعطافاً انحنى فيه إلى وضع ديني آخر؛ فقد ذكر الرواة أن العرب في الجاهلية كانت "تسمي الحنيف راعياً إذا لم يعبد الأوثان وتقول: ركع إلى الله"^(١)، قال الزمخشري^(٢): "أي اطمئن إليه"، ومنه قول النابغة الذبياني^(٣):

سَيَلُّغُ عِذْراً أَوْ نَجَاحاً مِنْ أَمْرِي إِلَى رَبِّهِ رَبِّ الْبَرِّيَّةِ رَاكِعٌ

وهذا التجوز من الجاهليين في استخدام الفعل "ركع" في وصف الحنيف، أباح لهم استخدامه في كل أمر عدل عن حاله إلى حالة أخرى، فاستخدموه على المجاز في وصف بعض الأمور الحياتية المتعلقة بالوضع المالي للإنسان، فـ"إذا افتقر [المرء]^(٤) بعد غنى، وانحطت حاله" قالوا: ركع الرجل^(٥)؛ قال الأضبط بن قريع^(٦):

وَلَا تُعَادِلِ الْفَقِيرَ عَالِماً أَنْ تَرْكَعَ يَوْماً وَالذَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

فاللغة إذن موجودة عند عرب الجاهلية، واستعملوها في معناها اللغوي في المستويين العملي والمعنوي، ولا يوجد دليل صريح على أنها استعملت بهذا المعنى في الصلاة الجاهلية، أو بالمعنى الذي نفهمه منها في الإسلام، أو أنها كانت فعلاً من أفعالها فيركعون في صلاتهم، ولكن استعمالها في التعبير عن عقيدة الحنيف أولاً، والتعبير المجازي في كل أمر عدل به عن وجهته المعروفة إلى وجهة أخرى ثانياً، إنما يعتبر مؤشراً - بوجود الاستعمال المادي للفظ - على أن العرب في الجاهلية عرفوا الركوع بمعنى الانحناء في غير موقف، قد يكون الركوع للأصنام - تعبدًا وحبًا وتعظيمًا وتقديسًا - أحد هذه المواقف، ليدلوا به على حالة من الذل والضعف التي هي بتأويل آخر الخضوع، وهو المعنى الذي يفيد الركوع لغوياً، ولكن ليس بالخضوع القلبي الذي يفهم في صلاة المرء المسلم، وتطبيقاً على الصعيد العملي على اعتبار أن المصلي يطأطئ رأسه^(٧)، على نحو يقرب من المعنى المجازي الذي أفاده بيت بشر.

وترد اللفظة في شعر أمية بن أبي الصلت في سياق يفسر معناها على النحو الذي ذكرناه، تفسيراً يحدد إطارها اللغوي والعملي (التطبيقي) تحديداً واضحاً، جاء من ارتباط اسم الفاعل "راكع" بالفعل "يحنو". والوصف وإن كان يخص الملائكة عليهم السلام، وإن كان أمية أدرك الإسلام^(٨) وسمع كثيراً من سور القرآن الكريم^(٩)، إلا أنه على الأرجح استمرار لمفهوم اللفظة في العصر الجاهلي على المستوى التطبيقي - أما اللغوي فلا خلاف عليه - خاصة

(١) ابن منظور، لسان العرب: (ركع)، وانظر "أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٩٠.

(٢) الزمخشري، جار الله، أبو القاسم، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م: (ركع).

(٣) ديوانه (تحقيق رواية الديوان): ٢٣٧. بيت مفرد.

(٤) زيادة إيسر في النص.

(٥) ابن منظور، لسان العرب: (ركع)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (ركع)، وانظر "أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٩٠.

(٦) شاعر جاهلي، البكري، سمط اللآلي: ٣٢٦، وانظر القالي، أبو علي، إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ)، الأمالي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م، ١٠٧:١. والبيت في أمالي القالي ١٠٨:١.

(٧) ابن منظور، لسان العرب: (ركع)، وانظر "أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٩٠.

(٨) ولكنه لم يُسلم.

(٩) الحوفي، الحياة العربية ٣٠٧:١، وانظر ص: ٣٠٩.

إذا علمنا أن أمية كان من الموحدين، وكان قرأ الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل) وتأثر بهما^(١)؛ يقول^(٢):
مَلَائِكَةُ لَا يَفْتُرُونَ عِبَادَةَ كَرُوبِيَّةٍ مِنْهُمْ رُكُوعٌ وَسُجُودٌ

.....

وَرَاكِعُهُمْ يَحْنُو لَهُ الظَّهْرَ خَاشِعاً يُرَكِّدُ آلاءَ الإلهِ وَيَحْمَدُ

فإذا نظرنا إلى هذه اللفظة: "الرُّكُوع"، وحاولنا أن نتلمس تطورها الديني، أو أن نثبئن خطوات سيرها في هذا التطور، بالاتكاء على دلالتها اللغوية (العملية التطبيقية) والمعنوية في الجاهلية نفسها إلى مجيء الإسلام، لقلنا إن الأصل في معناها المعنى المادي المتمثل في انحناء ظهر الكبير في السن، والعدول عن استقامته عدولاً ليس إرادياً، ثم تطور الأمر عندهم فاشتقوا من فعلها الثلاثي اسم فاعل وسموا به من عدل عن عبادة الأصنام إلى الحنيفية، تلا ذلك أو تزامن معه الاستفادة من مدلول هذه اللفظة - في المستويين العملي (المادي)، والمعنوي (الديني) - في استعمالها مجازياً في بعض المعاني التي ذكرناها سابقاً. ومن المحتمل أن تكون هذه اللفظة قد ارتبطت بالسجود منذ الجاهلية نفسها في نصوص غابت عنا ولم تصل إلينا، ولم يكن ارتباطها به ارتباطاً عبثاً، وإنما لحكمة إلهية لتهيئة العربي للصلاة وأفعالها من ركوع وسجود وما اقترن بهما من خشوع وخضوع! ثم استقام معناها عملياً في نهاية الجاهلية وأول الإسلام كما هو في شعر أمية بن أبي الصلت. وقد أکسبها الإسلام معنى دينياً خالصاً، فقال اللغويون في وصف الرُّكُوع وصفاً يقترب في هيئته العامة من معناه في الجاهلية، وهو الانحناء، فذكروا أن "الرُّكُوع ... هو^(٣) أن يَخْفِضَ المصلي رأسه بعد قُومَةِ القراءة، حتى تنالَ راحته رُكْبَتَيْهِ، أو حتى يطمئنَ ظَهْرُهُ"^(٤)، وهو في هذه الحالة يحتاج إلى الخضوع ليكون المصلي في غاية الذل والاستكانة، ليرضي الله سبحانه وتعالى فيستجيب لسؤاله إياه، كما يحتاج الجاهلي في ركوعه لحالة الضعف هذه ليتوسل إلى آلهته لتحقيق له مطالبه وحاجاته، كما أضاف الإسلام إليها معنى آخر ينصرف إلى تسميتها، فقال اللغويون في ذلك^(٥): "كل قُومَةٍ يتلوها الركوع والسجدة من الصلوات، فهي ركعة"، ولذلك عبروا عن الصلاة بعدد الركعات فقالوا^(٦): "رُكْعَ المصلي ركعة وركعتين وثلاث ركعات ...: صلي"، وقد تعددت الآيات الكريمة التي تذكر الركوع ليدل على الصلاة^(٧)، أو أنه فاعل من أفعالها مقترناً بها أو بالسجود^(٨).

٢- السجود:

ومن الأمور التي يستدل بها كذلك على الصلاة في العصر الجاهلي: السجود، فقد كان العربي الجاهلي يسجد

(١) أمية بن أبي الصلت، حياته وشعره، دراسة وتحقيق بهجة عبد الغفور الحديثي، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩١م، ص: ٩٤ - ١٠٢، وانظر الحوفي، الحياة العربية ٣٠٧:١ - ٣١٠.

(٢) ديوانه: ١٧٦ - ١٧٧.

(٣) في النص "فهو".

(٤) مرتضى الزبيدي، تاج العروس: (ركع)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ركع).

(٥) ابن منظور، لسان العرب: (ركع).

(٦) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ركع)، وانظر "أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٩٠.

(٧) المرسلات، الآية: ٤٨، والتوبة، الآية: ١١٢.

(٨) انظر على سبيل المثال: البقرة، الآية: ٤٣، ١٢٥، والحج، الآية: ٧٧، والمائدة، الآية: ٥٥، والفتح، الآية: ٢٩.

لأمور كثيرة في مواقف متعددة، ولكن لم يكن سجوده على نحو سجود المرء المسلم، وإنما كان يرتبط سجوده بخنيه رأسه، وهو الأصل في استعماله عندهم، وفي التطور اللغوي لهذه اللفظة. وقد دلت النصوص الشعرية على أن سجود العربي الجاهلي على هذه الشاكلة لم يكن يختص به وحده، وإنما تعداه - في هيئة سجوده - إلى غيره من الكائنات: الحية وغير الحية، من حيوانات ونباتات وجمادات، على سبيل الحقيقة والمجاز، ومع أن تلك النصوص لم تشر بصريح اللفظ إلى حني العربي رأسه في السجود، إلا أن السياق الشعري الذي وظفت فيه هذه اللفظة يدل على ذلك، يقول ابن منظور^(١): "أسجد الرجل: طأطأ رأسه وانحنى، وكذلك البعير؛ قال الأسدي: ...

وَقَلْنَ لَهُ أَسْجِدْ لِلَّيْلِ فَأَسْجَدًا"

يقصد بذلك بعيرها أنه طأطأ رأسه لتركيبه، ويستشهد اللغويون على هذا المعنى في توضيح هيئة السجود بقول حميد ابن ثور يصف نساء لما ارتحلن ولوين فضول أزمنة جمالهن على معاصمهن أسجدت لهن^(٢)، كسجود النصاري لسادتهم من رجال دينهم، والقائمين عليهم، وهو^(٣):

فُضُولُ أَرْمَتِهَا أَسْجَدَتْ سُجُودُ النَّصَارَى لِأَخْبَارِهَا

ويذكر الشعر الجاهلي سجود العربي في مواطن عديدة، وإذ نتبين أن سجوده لا يكون إلا بخنيه رأسه نحو الأرض، فإنه لم يكن يحني رأسه إلا إعظاماً لمن يسجد له، فهو سجود إعظام لا سجود عبادة^(٤)، يقول الطبري^(٥): "وأصل السجود الانحناء لمن سجد له معظماً بذلك. فكل منحنٍ لشيء تعظيماً له فهو ساجد". ويقول ابن منظور^(٦): "كان من سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظم"، وذلك كقول عمرو بن كلثوم يفخر بالتغليبين^(٧) في سجود الجبابرة من غيرهم لصبيانهم إعظاماً لهم، إذا بلغوا الفطام^(٨):

إِذَا بَلَغَ الْفُطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَ

ويتضح سجود الإعظام في مواقف المهابة والإجلال التي تكون أمام أشراف القوم، أو الملوك، وهو ما يمكن تسميته سجود الخضوع والطاعة، يقول الأعشى يمدح هوزة بن علي الحنفي في سجود الناس أمام طلعتة المهيبة، وقد تعصب فوق التاج، ووضع الأكاليل^(٩):

مَنْ يَلْقَ هَوْزَةَ يَسْجُدُ غَيْرَ مُتَّيِّبٍ إِذَا تَعَصَّبَ فَوْقَ التَّاجِ أَوْ وَضَعَا

(١) لسان العرب: (سجد)، وانظر السيوطي، المزهري ٢٩٥:١، و"أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٩٢.

(٢) أسجدت: إذا خفضت رأسها لتركب. ابن منظور، لسان العرب: (سجد).

(٣) حميد بن ثور الهلالي، ديوانه، تحقيق محمد يوسف نجم، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ص: ٥١، وانظر ابن منظور، لسان العرب، ومرئضي الزبيدي، تاج العروس: (سجد).

(٤) ابن منظور، لسان العرب: (سجد)، وانظر علي، جواد، تاريخ الصلاة في الإسلام: ٢١.

(٥) تفسيره (شاعر) ١٠٤:٢.

(٦) لسان العرب: (سجد)، وذكر سجود بني يعقوب ليوسف عليه السلام.

(٧) عند عمرو بن هند.

(٨) عمرو بن كلثوم، ديوانه، شرحه وضبط نصوصه عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م، ص: ١١٠.

(٩) ديوانه: ١٠٧، وانظر "أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٩٣.

ويقول فيه بالمعنى ذاته^(١):

ذَا التَّاجِ هَوْدَةٌ إِنَّهُ مَنْ يَلْقَاهُ يَسْجُدُ وَإِنْ كَانَ الْأَعَزُّ الْأَمْتَعَا

ولا شك أن سجود الإعظام هو بتأويل آخر سجود الإعجاب بالشيء الذي يُسجد له، وقد استعمل العرب هذا المعنى في أشعارهم، كما هو في قول المُسَيَّب بن عَلس يصف بخاراً (ملاحاً) أصاب دُرَّة فهو يسجد لها إعجاباً بها^(٢):

وَتَرَى الصَّرَارِيَّ يَسْجُدُونَ لَهَا وَيَضُمُّهَا بِبَيْتِهِ لِلنَّخْرِ

والإعجاب بالشيء يقود المرء إلى أن يسجد لله سجود الشكر لتفضله عليه، فالنابغة الذبياني يذكر عائصاً - في سياق وصفه المتجرّدة^(٣) - يسجد شكراً لله على ما وهبه من نفاسة الدرة وجلالة قدرها، يقول^(٤):

أَوْ دُرَّةً صَنِيفَةً ضَوَّاصُهَا بِهِجٍّ مَتَّى يَرَاهَا يُهْلُ وَيَسْجُدُ

وسجود الإعظام معروف عند أصحاب الديانات الأخرى كالنصرانية، وكان مرّ شاهد عليه من قول حميد بن ثور يصف سجود النصارى لأخبارها، وهو كذلك في شعر الأسود بن يَعر، فقد قيل إن من المعاني التي احتملها تفسير قوله: "دراهم الأسجاد"، أنها "دراهم ضربها الأكاسرة وكان عليها صور"، وقيل: كان عليها صورة كسرى فمن أبصرها سجد لها أي طأطأ رأسه لها وأظهر الخضوع^(٥)، وذلك قوله^(٦):

وَلَقَدْ لَهَوْتُ وَالشَّبَابِ لَذَاذَةً بِسُلَاقَةِ مَرْجَتِ بِمَاءِ غَوَادِي

مِنْ خَمْرِ ذِي نَطْفٍ أَغْنَى مُنْطَقَ وَأَلْفَى بِهَا لِدِرَاهِمِ الْأَسْجَادِ

وقد استفاد العرب من المعنى الذي أفادته كلمة السجود في استعمالهم لها مع الإنسان، فاستعملوها على المجاز خروجاً على هذا الاستعمال، إذ يُفهم من شواهدهم الشعرية أنهم أولوا حتّى رأس الساجد بالميلان في سجود غيره من نباتات أو جمادات؛ قال الزمخشري^(٧): "شجرة ساجدة: مائلة"، وقال ابن منظور^(٨): "نخلة ساجدة إذا أمالتها حَمَلَهَا. وسجدت النخلة إذا مالت"، واستشهد على ذلك بقول لبيد بن ربيعة يصف نخيلاً^(٩):

بَيْنَ الصَّفَا وَخَلِيجِ الْعَيْنِ سَاكِنَةً غُلَبٌ سَوَاجِدُ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا الْحَصْرُ

(١) أبو اليقاء، هبة الله، محمد بن نما الحلبي (عاش ما بين ٤٥٠هـ - ٥٥٠م)، المناقب المزيديّة في أخبار الملوك الأسديّة، تحقيق محمد عبدالقادر خريسات وصالح موسى درادكة، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م، ٦٠:١، والبيت ليس في ديوان الأعشى.

(٢) المُسَيَّب بن عَلس، شعره، جمعه وحفّقه ودرسه أنور أبو سويلم، ط١، منشورات جامعة مؤتة، الأردن، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م، ص: ١٠٢.

(٣) زوجة النعمان بن المنذر.

(٤) ديوانه: ٩٢.

(٥) ابن منظور، لسان العرب: (سجد). وقيل غير ذلك.

(٦) ديوانه: ٢٩.

(٧) أساس البلاغة: (سجد).

(٨) لسان العرب: (سجد)، وانظر "أبو عودة"، التطوّر الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٩٢.

(٩) شرح ديوانه: ٦٠. وقيل في معنى البيت غير ذلك، انظر ابن منظور، لسان العرب: (سجد).

ولقناعة العرب بسجود الشجر، وأن له هيئة في السجود جعلوه في أيمانهم في قسمهم بالله؛ فقالوا^(١): لا والذي سجد له النجم والشجر.

ومن هذا الاستعمال المجازي أن قالوا بسجود السفينة للرياح بمعنى تطيعها وتميل بميلها^(٢)؛ قال بشر بن أبي خازم يشبه الناقة بسفينة تميل مع الرياح حيث أمالتها^(٣):

أَجَالِدُ صَفَّهُمْ، وَلَقَدْ أَرَانِي عَلَى قَرَوَاءَ تَسْجُدُ لِلرِّيَّاحِ

ويحمل سجود الإعظام عند العرب على معنى التحية^(٤)، وسجود التحية في العرب منذ أن خلق الله آدم عليه السلام وأمر الملائكة بالسجود له^(٥)، يقول أمية بن أبي الصلت يذكر ذلك^(٦):

وَبِإِذْنِهِ سَجَدُوا لِآدَمَ كُلُّهُمْ إِلَّا أَعْيُنًا خَاطِبًا مَذْهُورًا

ويقول أيضاً^(٧):

مِنَ الْحَقْدِ نِيرَانُ الْعَدَاوَةِ بَيْنَنَا لِأَنَ قَالَ رَبِّي لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ لَمَّا كَمَّلَ اللَّهُ خَلْقَهُ فَخَرُّوا لَهُ طَوْعاً سُجُوداً وَكَدُّوا

ويفسر الطبري سجودهم لآدم أنه "سجود تحية وتكرمة لا سجود عبادة"^(٨)، والشأن نفسه يقال في سيدنا يوسف عليه السلام، فقد خرَّ يعقوب وولده وأمه ليوسف سجداً^(٩)، ويصف الطبري طريقة سجودهم له، فيقول^(١٠): "وكانت تحية الناس يومئذ أن يسجد بعضهم لبعض"، وإنما سجدوا له لشرفه، كما سجدت الملائكة لآدم لشرفه، وليس بسجود عبادة^(١١)، ويذكر ابن كثير شيوع هذه العادة فيهم أن "كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام"^(١٢). أما الطبري فيعمل سجود التحية بينهم في ذلك الزمان، واستمرارية صنيعهم هذا في العرب؛ فيقول^(١٣): "أن ذلك كان منهم على الخلق، لا على وجه العبادة من بعضهم لبعض. ومما يدل على أن ذلك لم يزل من أخلاق الناس قديماً قبل الإسلام على غير وجه العبادة من بعضهم

(١) النجيري، أبو إسحاق، إبراهيم بن عبد الله (ت بعد ٣٥٠هـ)، أيمان العرب في الجاهلية، نسخه وصححه محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٤٣هـ، ص: ١٩.

(٢) الزمخشري، أساس البلاغة: (سجد).

(٣) ديوانه: ٩٠.

(٤) انظر ابن منظور، لسان العرب: (سجد)، و"أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٩٣.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٢٩. فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس. انظر مضمون سورة الحجر، الأيتين: ٣٠ - ٣١.

(٦) ديوانه: ٢٢٢.

(٧) المصدر السابق: ١٨٢.

(٨) تفسيره (بولاقي) ٢٢: ١٤، وفي الفراء، أبو زكريا، يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ)، معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، ط ٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٠م، ٨٨: ٢ "سجود تحية وطاعة لا لربوبية".

(٩) الطبري، تفسيره (شاعر) ٢٦٩: ١٦، وانظر سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(١٠) تفسيره (شاعر) ٢٦٩: ١٦.

(١١) المصدر السابق ٢٧٠: ١٦.

(١٢) تفسير القرآن العظيم ٥٨٤: ٢. ويتابع فيقول: (٥٨٤: ٢ - ٥٨٥): "فحرم هذا في الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى".

(١٣) تفسيره (شاعر) ٢٧٠: ١٦.

لبعض، قول أعشى بني ثعلبة:

فَلَمَّا أَتَانَا بُعِثَ الْكَرَى سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَعْنَا عَمَاراً^(١)

ويتضح من البيت أن كانت تحية الملوك كذلك في ذلك الزمان^(٢)، إذ كان الناس يسجدون لهم على هذه الهيئة، شكراً وتعظيماً رافعين أيديهم بالريحان هاتفين عمرك الله!

ويذكر الرواة أخباراً تشير إلى أن سجود التحية هو سجود الطاعة بمفهوم آخر، كما يُفهم من الخبر الذي رواه عن المنذر الأكبر أن له صتمين يقال لهما "الصتمينان"، كان "اتخذهما بباب الحيرة ليسجد لهما من دخل الحيرة امتحاناً للطاعة"^(٣). ويذكرون أخباراً أخرى تشير إلى أن هذا الضرب من السجود كان موجوداً عند الأمم الأخرى كالنصارى^(٤) والفرس إلى وقت متأخر، وأنه انقطع بمجيء الرسول (صلى الله عليه وسلم)، يدل ذلك الخبران التاليان، فقد روي "أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأسافقتهم، فلما رجع سجد لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال ما هذا يا معاذ؟ فقال إني رأيتهم يسجدون لأسافقتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله...". وفي خبر آخر روي "أن سلمان لقي النبي (صلى الله عليه وسلم) في بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت"^(٥). يشير الخبران إلى شيوع سجود التحية (الطاعة) بين العرب وغيرهم من الأمم، وأنه كان جائزاً في شريعتهم، وأنهم كانوا يسجدون على نحو سجود العربي الجاهلي لملوكهم، يقول الألويسي عن سجود الفرس لملوكهم^(٦): "ولهم تحية يخصون بها ملوكهم من هيئات خاصة عند دخولهم عليهم كالسجود ونحوه...".

على أن من المعاني التي احتملتها كلمة السجود في دلالاتها اللغوية: الخضوع^(٧)، واستشهد اللغويون على هذا المعنى بقول زيد الخيل الطائي يصف كثرة الجيش^(٨):

بَجَيْشٍ تَظَلُّ الْبُلُقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ

وفسر الطبري "سجداً" في البيت بمعنى "خاشعة خاضعة"^(٩)، إذ يريد الشاعر أن يقول "أن الأكْم قد خشعت من وقّع الحوافر"^(١٠)، بمعنى سويت ولزقت بالأرض من شدة وقّعها عليها، وتفسير الطبري للسجود بمعنى الخشوع

(١) انظر ديوانه: ٥١. يمدح قيس بن مغيرة أحد سادة اليمن في حضرموت.

(٢) وانظر أيضاً الطبري، تفسيره (شاعر) ٢٦٩:١٦.

(٣) ابن منظور، لسان العرب: (ضرن).

(٤) وانظر أيضاً الشاهد الشعري السابق من قول حميد بن ثور في سجود النصارى لأخبارها.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٥٨٥:٢، وانظر الخبر الأول في ابن ماجه، أبو عبد الله، محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ٥٩٥:١. وتامه: "فقال لو كنت أماً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقّه عليها".

(٦) بلوغ الأرب ١٩٣:٢.

(٧) ابن منظور، لسان العرب: (سجد).

(٨) زيد الخيل الطائي، شعره: جمع ودراسة وتحقيق، صنعة أحمد مختار البرزة، ط١، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م، ص: ١١٠، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (سجد).

(٩) تفسيره (شاعر) ١٠٥:٢.

(١٠) ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، المعاني الكبير في أبيات المعاني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م، ص: ٨٩٠، وقال ابن منظور (لسان العرب: خشع): "أكمة خاشية: ملتزمة لاطنة بالأرض".

والخضوع يدل على أن الكلمتين بمعنى^(١)، وأن العرب عرفوا الخضوع كما عرفوا الخشوع - كما مر - ولكنهم لم يعرفوا الخضوع في السجود بالمعنى الذي عرفه فيه المرء المسلم، والذي يفهم من قول سويد بن أبي كاهل يصف عدواً أنه في حالة من الذل والضعف مطأطء الرأس^(٢):

سَاجِدَ الْمَخْرَجِ لَا يَرْفَعُهُ
خَاشِعَ الطَّرْفِ أَصَمَّ الْمُسْتَمِعِ

إذ يتطلب هذا السجود وذلك الخضوع أن يميل المرء رأسه إلى الأرض أو يذو منها^(٣)، ومتى تحقق له ذلك سجد فوضع جبهته على الأرض^(٤)، وليس المقصود من ذلك كله في صلاة المرء المسلم هو القيام بالأعمال الحركية فقط، وإنما ينبغي أن يقوم المرء بها في ذل وتواضع وخضوع^(٥) يدل على هيئة في النفس، بحيث يستشعر المرء عظمة الله وجلاله، وهذا ما لم يتحقق في صلاة العربي الجاهلي قط؛ يقول أمية بن أبي الصلت يصف حالة الخضوع والسجود لله تعالى^(٦):

مَلِكٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيَّمٌ
لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ

على أنه ينبغي ألا يغرب عن بالنا الخبر الذي استشهدنا به عن صلاة زيد بن عمرو بن نفيل ومحاولته السجود على وجهه، بما يشير إلى مرحلة من المراحل التي هيأت العربي الجاهلي لتقبل ما بعدها، وإن دل السجود على الركوع بحيث فُسِّرَ "سَجَدَ" بمعنى "رَكَعَ"، لأن الراكع مُنْحَنٍ وإن كان الساجد أشد انحناء منه^(٧)، إلا أن ذلك ورد في الشعر على نحو تأويلي لبيان حالة الذل والضعف التي تملكت المعنى (الموصوف) بهذه الصفة، وهو في مثل هذه الهيئة من التظامن وطأطأة الرأس، كما يفهم من المعنى المجازي الذي أفاده بيت بشر في وصفه فرس حاجب بن زُرارة لما فرَّ حاجباً من ساحة الوغى، وكأنه وصف حاجباً بوصفه فرسه. وهذا الشعر - بهذه الدلالة التأويلية لهذه اللفظة - إن لم يحمل خنوع المرء وخضوعه في استشعاره الذات الإلهية في توجهه إليها، يكن إنكار المعاني التي حملتها تلك الألفاظ في الحالات التي استعملت فيها ووُظِّفَتْ في سياقها هو من العبث بمكان، بل إن إنكار وجود هذه الألفاظ فيه هو أشد عبثاً، لأنها حملت المعاني ذاتها، ولكن بهيئة وتوجه يغايران هيئة وتوجه المرء المسلم، ولأن حملها لها - أي الألفاظ للمعاني - في هذه الحدود هو ضرورة فرضتها ظروف الحياة الجاهلية لتهيئ العربي للمرحلة القادمة، وليكون تطورها وتهذيب معناها في صدق توجهها إلى الله سبحانه وتعالى أيسر في هذه المرحلة.

- مستلزمات الصلاة:

١ - مكان الصلاة:

قادت معرفة العرب بالصلاة العلماء واللغويين إلى المبالغة في تفسيرها، تفسيراً تجاوز حدود العبادة إلى المكان

(١) وانظر ابن منظور، لسان العرب: (خشع)، و"أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٩٢.

(٢) سويد بن أبي كاهل اليشكري، ديوانه، تحقيق شاكراً العاشور، ط١، دار الطباعة الحديثة، البصرة، ١٩٧٢م، ص: ٣٤.

(٣) انظر معنى خضع في ابن منظور، لسان العرب: (خضع).

(٤) انظر معنى سجد في المصدر السابق: (سجد).

(٥) انظر الحاشيتين السابقتين.

(٦) ديوانه: ١٧٥، وانظر مثلاً آخر ص: ١٧٦ - ١٧٧ يصف هيئة الركوع والسجود فيما كنا ذكرناه.

(٧) انظر الطبري، تفسيره (شاكراً) ١٠٥:٢.

الذي تؤدّى فيه؛ فقد ذكر ابن فارس أن "الصلاة: بيت يصلّى فيه"^(١)، وسحب بعضهم هذا التفسير على صلاة غير العربي الوثني فذكروا أن "صلوات اليهود: كنائسهم"^(٢)، على اعتبار أن هذه العبادة تؤدّى فيها فأقيمت الصلوات مقامها. ويعلّل الراغب الأصفهاني هذا التفسير فيقول^(٣): "ويُسَمَّى موضعُ العبادة الصلاة، ولذلك سُمِّيَت الكنائسُ صلواتٍ كقوله: (لَهْدَمْتُ صَوَامِعَ وَبَنَعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ)"^(٤). ويذكر ابن جنّي أن معنى "صلّوات" في هذه الآية "المساجد، وهي على حذف المضاف، أي: مواضع (الصلّوات)"^(٥). ويخصّص بعضهم مكان الصلاة بأهل الكتاب فيقول^(٦): "الصلاة بيت لأهل الكتاب يُصلّون فيه".

وبقيت هذه اللفظة محافظة على معناها في الإسلام في دلالتها على مكان الصلاة فيه، وهو المسجد، كما في قوله سبحانه وتعالى: (لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)، والذي يدلّ على أنه على سبحانه وتعالى بالصلاة مكانها قوله في الآية نفسها^(٧): (وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ)؛ "فهذا يدلّ على أن المراد: لا تقربوا المسجد، فقال: (الصلاة)"^(٨).

ثم اشتقوا من الفعل المضارع لهذه الكلمة مصدراً ميمياً ينوب عن الصلاة في الدلالة على مكانها؛ فقالوا: "مُصَلًّى"، وقد ورد هذا المعنى في صلاة العربي الجاهلي في قول بشر بن أبي خازم في سياق حديثه عن الهديّ الذي ينحر بمكة^(٩):

حَقَّقْتُ بِرَبِّ الدَّامِيَاتِ نُحُورُهَا وَمَا ضَمُّ أَجْيَادُ الْمُصَلَّى وَمَذْهَبُ^(١٠)

وكما في قوله تعالى^(١١): (وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)، وكما نجد في قول حسان بن ثابت يرثي النبي (صلى الله عليه وسلم)^(١٢):

وَوَاضِحُ آيَاتٍ، وَبَاقِي مَعَالِمٍ، وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِدٌ

٢- الموضوع:

روى الرواة أخباراً تشير إلى أن العرب كانوا يداومون على طهارات الفطرة التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام، والتي منها الاستنجاء^(١٣)، وذكروا تقاليدهم وبعض عاداتهم التي أقرّها الإسلام، والتي تُذكر فيما تذكر أنهم كانوا

(١) ابن فارس، أبو الحسين، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، معجم اللغة، دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م، ٥٣٨:٢، وانظر القرطبي، تفسيره ١: ١٦٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: (صلا).

(٣) المفردات: (صلا).

(٤) الحج، الآية: ٤٠.

(٥) المحتسب ٢: ٨٤.

(٦) ابن منظور، لسان العرب: (صلا).

(٧) النساء، الآية: ٤٣.

(٨) ابن جنّي، المحتسب ٢: ٨٥.

(٩) معجم البلدان ١: ١٣١، و٢: ٢١٢ (عجزه)، وديوانه: ٦٠ (الحاشية في رواية).

(١٠) وفسره ياقوت (معجم البلدان ١: ١٣١) عن أبي عبيدة فقال: "المُصَلَّى: المسجد. والمَذْهَبُ: بيت الله الحرام".

(١١) البقرة، الآية: ١٢٥.

(١٢) ديوانه: ٤٥٥.

(١٣) ابن حبيب، المحبّر: ٣٢٩، وانظر الشهرستاني، الملل والنحل ٢: ٢٤٩.

يغتسلون من الجنابة^(١)، وهذه مؤشرات تؤدي إلى تخمين أنهم كانوا يعرفون الوضوء، وليس من إشارة تبين كيفية وضوئهم إلا ما ذكر أنهم كانوا يتوضأون للشعر العظيم، فقد ذكر الزبيدي بسنده الخبر التالي عن قصيدة المثلث الميمية؛ فقال^(٢): "قال أبو عمرو بن العلاء: كانت العرب إذا أرادت أن تنشد قصيدة المثلث توضحوا لها: تُعَيِّرُنِي أُمِّي رِجَالٌ وَلَكِنْ تَرَى أَحَاكَرَمَ، إِلَّا بِأَنْ يَنْكَرَ مَا"^(٣)

ويعلق عادل الفريجات على البيت في سياق حديثه عن وجود علاقة بين نشأة الشعر العربي وطقوس العبادة في الجاهلية؛ فيقول^(٤): "والوضوء منذ الجاهلية البعيدة كان طقساً من طقوس العبادة، وهو شعار ديني قديم بلا خلاف. وللصلة الوثيقة بين الشعر العالي الرفيع، والأناشيد الدينية، توضاً العرب لقصيدة المثلث".

ولعل العرب استخدموا ألفاظاً آخر في التعبير عن الوضوء بما يقارب معنى المَسْح، استخداماً جعلوه في التمسح بدم القتيل؛ فقد ذكر ابن منظور أن قولهم^(٥): "تَمَكَّى الغلام إذا تطهر للصلاة"^(٦)... وأنشد لعنترة الطائي:

إِنَّكَ، وَالْجَوْرَ عَلَى سَبِيلٍ، كَالْمَتَمَكِّي بِسَدَمِ الْقَتِيلِ

وفسره فقال: "يريد كالمتوضيء والمتمسح".

٣- الخشوع^(٧):

إن المعنى الذي يذكره اللغويون ابتداء للأصل الثلاثي الذي يعود إليه هذا المصدر، وهو "خَشَعَ"، بمعنى "رمى ببصره نحو الأرض وغطه وخفض صوته"^(٨). وكذلك تفسيرهم "الخشوع" أنه "قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن"^(٩)... والخشوع في البدن والصوت والبصر، هو معنى متطور لهذه اللفظة كان مرّ بمراحل من الاستعمال تجاوز فيها المعنى المادي ثم المعنى المعنوي إلى أن وصل إلى هذا المعنى الذي هو أقرب في تأويله إلى الحالة التي يكون عليها المصلّي.

لقد سبق أن ذكرنا أن العرب عرفوا في العصر الجاهلي الخشوع في معناه الأصلي، إذ ورد عندهم في خشوع

(١) للشهرستاني، الملل والنحل ٢: ٢٤٨.

(٢) الزبيدي، أبو بكر، محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م، ص: ٣٩، وانظر المثلث الضبيعي، ديوان شعره، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م، ص: ١٢ (الحاشية)، و ٣٨ (مقدمة الديوان).

(٣) انظر القصيدة التي منها هذا البيت، في المثلث، ديوان شعره: ١٤ - ٤٠، وهي القصيدة الأولى في الديوان، ورواية البيت فيه: "تُعَيِّرُنِي وَلَا أَرَى".

(٤) الفريجات، عادل، الشعراء الجاهليون الأوائل، ط ١، دار المشرق والمكتبة الشرقية، بيروت، ١٩٩٤م، ص: ٣٦.

(٥) لسان العرب: (مكا)، وانظر ابن فارس، أبو الحسين، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط ١، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ = ١٩٩١م، ٥: ٣٤٥.

(٦) وكذلك تطهر وتكرّج.

(٧) انظر حديثاً مفصلاً في هذا الموضوع في زرزور، نوال كريم، معجم ألفاظ القيم الأخلاقية وتطورها الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، ط ١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠١م، ص: ٣٧ - ٣٩.

(٨) ابن منظور، لسان العرب: (خشع)، وكذلك قوله: "خَشَعَ بصره: انكسر"، وانظر "أبو عودة"، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٩٩، ٢٠١.

(٩) وهو الإقرار بالاستحذاء. انظر ابن منظور، لسان العرب: (خشع).

الدار بعد الإقواء^(١)، وامتدَّ هذا المعنى ليتجاوز الحدود المكانية الضيقة التي وُضع فيها إلى حدود أوسع تُذكر في الجبل الخاشع، وهو المتداعي المستوي مع الأرض؛ يقول زهير بن أبي سلمى في سياق وصفه حمار الوحش^(٢):

ارتاع، يَذْكُرُ مَشْرَباً، بِثَمَادِهِ مِنْ دُونِهِ خُشَعٌ، ذَنُونٌ، وَأَنْقَبُ

وكان من الطبيعي أن يستفيد العرب من المعنى المادي في تداعي البيت أو الجبل واستوائهما مع الأرض فيما يتعلق بالرمال والحجارة، إلى معنى مادي آخر يتجاوز محور الشيء البارز، أو اختفائه إلى شيء تبقى منه بقية، ويتعلق بما يدبُّ على الأرض في سبيل التدرج اللغوي لمعنى "خشع" والارتقاء به، وكان الارتقاء في دلالة المعنى اللغوي لهذه اللفظة حصل في أمرين، الأمر الأول في انتقال معناها من معنى مادي ملحوظ يكون في الجماد إلى معنى مادي آخر محسوس يكون بمن فيه الحياة، أي في الحيوان، والأمر الثاني أنها انتقلت مكانياً من الأسفل إلى الأعلى، ومن المكان المتدني في الشيء الذي يستوي مع الأرض، إلى المكان العلوي في الشيء الذي يكون عليها. وتعدَّ هذه الخطوة خطوة موفقة في فلسفة التدرج اللغوي لمعنى "خشع" تقودنا إلى سحبها على الإنسان لنصل بها إلى ما نريد من معنى ديني؛ فقد قالوا عمن ذهب شحمه، وفني جسمه من الهزال خُشَعَ بمعنى نحل جسمه؛ يقول الأعشى يصف وحشاً بذلك في سياق وصفه لبقرة الوحش^(٣):

أَهْوَى لَهَا ضَابِيَّةٌ فِي الْأَرْضِ مَقْتَحِصٌ لِلْحَمِّ قَدْماً خَفِيٌّ الشَّخْصِ قَدْ خَشَعَا

ثم انتقلت اللفظة في دلالتها اللغوية من المجال المحسوس إلى المجال المعنوي، وتخطت الحيوان واختصت بالإنسان، وأخذت مسارها فيه في أوضاع مختلفة، إذ صارت تدل في إحداها على المظهر الخارجي له في حالة من العموم المطبق عليه، وهي حالة الذل والاستكانة التي تكون لسبب يقع على الإنسان^(٤)؛ يقول لقيط بن يعمر في هذا المعنى يصف رجلاً^(٥):

لَا مُشْرِفاً إِنْ رَخَاءَ الْعَيْشِ سَاعِدَهُ وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوءُهُ بِهِ خَشَعَا

ويقول عبد قيس بن خفاف في مثل ذلك^(٦):

وَإِذَا افْتَقَرْتَ فَلَا تَكُنْ مَتَخَشَعَا تَرْجُو الْفَوَاضِلَ، عِنْدَ غَيْرِ الْمُفْضِلِ

ويقول طرفة بن العبد بصور نفسه عند مَنْ يعطي القليل بعد إلحاح لشدة بخله^(٧):

لَا كَرِمَ نَفْسِي أَنْ أَرَى مَتَخَشَعَا لِذِي مِثَّةٍ يُعْطِي الْقَلِيلَ عَلَى الرَّحْضِ

(١) انظر حديثنا في تعريف الصلاة، وبيت النابغة الذبياني الذي استشهدنا به على ما نحن فيه.

(٢) زهير بن أبي سلمى، شعره، صنعة الأعلام للشنتمري، تحقيق فخر الدين قباوة، ط٣، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م، ص: ٢٠٨، وانظر "زرزور"، معجم ألفاظ القيم الأخلاقية: ٣٨.

(٣) ديوانه: ١٠٥، وانظر "زرزور"، معجم ألفاظ القيم الأخلاقية: ٣٨.

(٤) مثل الفقر أو نوائب الدهر. وانظر ما قاله "أبو عودة" حول ذلك في: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ١٩٩.

(٥) لقيط بن يعمر، ديوانه، تحقيق عبد المعين خان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م، ص: ٤٨.

(٦) المفضل الضبي، أبو العباس، المفضل بن محمد بن يعلى (ت ١٧٨هـ)، المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط١٠، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤م، ص: ٣٨٥، وانظر التبريزي، أبو زكريا، يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ)، شرح اختيارات المفضل، تحقيق فخر الدين قباوة، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م، ص: ١٥٥٩، و"زرزور"، معجم ألفاظ القيم الأخلاقية: ٣٨.

(٧) طرفة بن العبد، ديوانه (صلة الديوان)، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقل، ط٢، دار الفارس، عمان، ٢٠٠٠م، ص: ١٦٦.

وقد تكون لغير سبب، وإنما هي حالة تلتصق بالإنسان، وتسيطر على مظهره وشكله العام، كما يقول عوف بن عطية بن الخَرَج التَّيْمِي ينفى الذل عن نفسه^(١):

وما بي، فاعلموه، مِن خُشوعٍ إلى أخذٍ، وما أزهى بكبرٍ

ومن هذا الاستعمال المجازي المختص بالإنسان استُعْمِلَت كلمة "الخشوع" بمعنى "كل شيء بضعف بعد قوة"^(٢)، للدلالة على حالة الخضوع والذل التي تجاوزت الإنسان (الفرد) إلى قومه، كما في قول سعدى بنت الشمر ذل الجهنية تصور مجد قومها الضائع في رثائها لأخيها^(٣):

ذهبت به بهز فاصبح جدها يعلو، واصبح جد قومي يخشع

وقد انتقلت هذه اللفظة من هذه المعاني التي ذمها الشعراء في الرجال، إلى المعاني المحببة التي حمدوا وجودها في النساء، وهن يظهرن ساكنات خاضعات على نحو يبرز سجن طرفهن وفتره، إذ أكثر ما يتضح خشوع المرء في بصره إذا انكسر، يقول الأعشى^(٤):

خاشعات يظهرن أكسية الخ - زربطن دونهما بشفوف

وهذا المعنى الذي أفادته كلمة "الخشوع" بمعنى "الخضوع"^(٥) انتقل موضعياً من خشوع البصر إلى خشوع البدن بالدلالة نفسها على نحو يظهر حركة البدن حركة تصفه بهذه الصفة، إذ أن خضوع البدن يكون في انحناء الظهر في صورة تشبه الرأع في الصلاة، ولذلك لا غرو أن نجد اللغويين فسروا الخاشع بمعنى "الراكع في بعض اللغات"^(٦). وقد استعمل العرب هذا المعنى في خشوعهم أو خضوعهم لأمرائهم وأشرفهم خضوعاً يزيه السكون والضعف، ويعلوه التواضع هيبة منهم ووقاراً لهم، يقول الأعشى يمدح مسروق بن وائل وهو أحد أمراء اليمن وأشرفهم^(٧):

فإذا رأوه خاشعاً - خشعوا لذي تاج خلاجل

ولعل ما ذكرناه - من دلالة الركوع على الخضوع دلالة تأويلية أو صريحة في الشعر الجاهلي^(٨)، وما توصلنا إليه من أن الخاشع هو الرأع، وأن الخشوع والخضوع يأتیان بمعنى - لا يعني أن العربي الجاهلي كان يخشع في الصلاة، أو أنه كان يصلي كما يصلي المرء المسلم بالضوابط نفسها التي يلتزمها في صلاته، وإنما يعني أن هذه اللفظة تهيأت لحمل هذا المعنى منذ الجاهلية نفسها، حتى إذا جاء الإسلام صار الخشوع مطلباً في الصلاة لا غنى للمرء عنه، لحكمة إلهية تتجلى في إعداد العربي الجاهلي لتقبل المرحلة القادمة.

إن هذه المراحل التي مرت بها كلمة "الخشوع" عبر معاناتها اللغوية، واستعمالاتها الوظيفية لتصل إلى ما نتوقع

(١) المفضل الضبي، المفضليات: ٣٢٨، وانظر التبريزي، شرح اختيارات المفضل: ١٣٧٧، و"زرزور"، معجم ألفاظ القيم الأخلاقية: ٣٨.

(٢) أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ٢٠٠.

(٣) وكانت قتلته بهز من بني سليم بن منصور. الأصمعي، أبو سعيد، عبد الملك بن قريظ (ت ٢١٦هـ)، الأسمعيات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط ٧، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣م، ص: ١٠٣.

(٤) ديوانه: ٣١٣.

(٥) وانظر هذا المعنى أيضاً في ابن منظور، لسان العرب: (خشع).

(٦) انظر المصدر السابق: (خشع).

(٧) ديوانه: ٣٣٩، وانظر "زرزور"، معجم ألفاظ القيم الأخلاقية: ٣٨.

(٨) كما في بيت بشر بن أبي خازم وأبيات هذا القسم من البحث.

منها، ومن ثم إلى ما نريد منها من معنى في "الخشوع" يدل على "هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع"^(١)، انصرف في مرحلة متأخرة من العصر الجاهلي إلى المعنى الديني التعبدية الذي نلمسه عند شاعر بسم الطابع الديني شعره، وكان على معرفة بالأديان السماوية^(٢)، هو أمية بن أبي الصلت الذي جمع الخشوع مع الركوع للدلالة على الخضوع والتواضع في ذكره الخلق وملكوت السماء والملائكة؛ فيقول^(٣):

فَسَاجِدُهُمْ لَا يَرْفَعُ الدُّهْرَ رَأْسَهُ يُعْظَمُ رَبًّا فَوْقَهُ وَيُمَجِّدُ
وَرَاكِعُهُمْ يَحْتَوِي لَهَ الظُّهْرَ خَاشِعًا يُرَدُّ آلَاءَ إِلَهِهِ وَيَحْمَدُ

حتى إذا تجاوزنا هذه المرحلة إلى مرحلة متقدمة في مسيرة هذه اللفظة، في أول الإسلام عند تميم بن أبي بن مقبل أحد الشعراء المخضرمين الذي كان من الطبيعي أن يتأثر في إسلامه بالتيار الإسلامي - وإن كانت نفسه ما تزال تنزع به إلى الحياة الجاهلية، ولا يفتأ يذكرها في شعره - وجدنا هذه اللفظة أخذت منحى أوغل في المعنى الديني التعبدية لأفعال الصلاة مبالغة في الدلالة على معنى الخضوع والتواضع الذي هو هيئة نفسية تراقق أكثر ما يكون الركوع، بل هو معنى يفصح من تلقاء نفسه في هذا الفعل، ويكون أكثر ظهوراً فيه، وإذن لا عجب أن يعبر الشاعر عن الركوع بالخشوع وأن يكون الخشوع المعنى المرادف له، ما دام يظهر أحدهما بالآخر، ولا يكون الآخر إلا بالأول، يقول تميم يشبه اضطراب الأكام وارتفاعها وانخفاضها في السراب بحركات الركوع والسجود في الصلاة^(٤):

حَتَّى اسْتَبَيَّتُ الْهَدَى، وَالْبَيْدُ هَاجِمَةٌ يَخْشَعْنَ فِي الْآلِ غُلْفًا أَوْ يُصَلِّيْنَا

إن هذه المعاني التي أفادتها كلمة الخشوع في تدرجها اللغوي - في تداعي الشيء، وهو الشيء المتساقط، إلى نحول البدن، ثم إلى الرجل الذليل، ثم إلى سكون البصر، وبعد ذلك إلى خضوع البدن في تواضع وسكون، إلى أن اجتمع الخشوع مع الركوع للدلالة على الخضوع، إلى استعمال الخشوع بمعنى الركوع واختصاصه به - قد أعطت مؤشراً في أصل وضعها اللغوي على أن هذه اللفظة ينبغي أن تحيا في وجدان الأمة، وأن تتقلب فيها في أوضاع مختلفة، وأن تتدرج في معانيها لتصل إلى مرحلة يستقر فيها معناها، وكان كنهها عند الله سبحانه وتعالى، إذ أن معاني هذه اللفظة التي دللت على استواء الشيء المتساقط مع الأرض والنحول والذل إنما دللت على شيء يختفي بعد ظهوره، ويضعف بعد قوة دلالة تفيد معنى الانكسار الذي انحسر في انكسار الرجل الذليل، وأن انكساره يظهر في آخر الأمر في خضوعه الذي يكون بحثيه أجزاء من بدنه على هيئة الراكع (أو الركوع) في الصلاة، وهو وإن لم يظهر بالمعنى الديني التعبدية في المراحل الأولى من العصر الجاهلي، إلا أنه برز فيه في المرحلة التي اقتربت من الإسلام إلى أن أصبح خالصاً فيها. ولذلك اقتضت ظروف الحياة لحكمة إلهية أن يكون الاستعمال اللغوي لهذه اللفظة بمعانيها المادية في الجاهلية، وأن تتقلب استعمالاتها فيها، وأن يتناسب معناها ابتداءً مع العقلية العربية الساذجة، وأن يترك للزمن حركة تدويرها فيه، فيفرز لها بين الفينة والأخرى استعمالات جديدة يسير بها سيراً بطيئاً ليزسج

(١) القرطبي، تفسيره ٣٧٤:١، وانظر "رزور"، معجم ألفاظ القيم الأخلاقية: ٣٩.

(٢) انظر فيه قول ابن سلام الجمحي، أبو عبد الله، محمد بن سلام (ت ٢٣١هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٠م، ٢٦٣:١، والحوافي، الحياة العربية: ٣٠٧، و"رزور"، معجم ألفاظ القيم الأخلاقية: ٣٩.

(٣) ديوانه: ١٧٧، وانظر شيخو اليسوعي، شعراء النصرانية: ٢٢٧.

(٤) ديوانه: ٢٢٩.

معانيها عبر تطورها اللغوي، دون أن يقفز في معناها الذي استقر لها في الإسلام قفراً ترفضه العقلية العربية، فإذا جاء الإسلام جاء على أرضية صلبة، وقد خلصت هذه اللفظة له، وصفت من معانيها الجاهلية، واستقرت مسيرتها عنده، ومن ثم تعين معناها فيه دينياً، فاخترت بالصلاة.

٤ - التسبيح:

لقد كان من المعاني التي احتملتها كلمة الصلاة دلالتها على التسبيح^(١)، إذ أن الصلاة في أصل معناها الدعاء، والتسبيح في أحد معانيه دعاء^(٢)، ولما كان الدعاء صلاةً، فالصلاة إذن تسبيح، قال الزمخشري^(٣): "سَبَّحَ: صَلَّى"، واستشهد على ذلك بقوله تعالى^(٤): (قُلْ لَا أَنُكَرُكَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ). ويعمل ابن منظور هذا التفسير في تسميته الصلاة تسبيحاً؛ فيقول^(٥): "سُمِّيَتِ الصلاةُ تسبيحاً لأنَّ التسبيحَ تعظيمُ الله وتزجيهِه من كلِّ سوء". وقد ورد هذا المعنى في عدد من آيات القرآن الكريم^(٦)، قال ابن عباس^(٧): "كل تسبيح في القرآن صلاة"، وفُسرَ به بعض التراكيب اللغوية^(٨)، والأقوال^(٩)، وعليه قول الأعشى في رواية من روى "وسبَّح" مكان "وصلَّ" في إنابة إحدى الكلمتين عن الأخرى معنى، إذ دلت الكلمتان على معنى واحد، وإن اختلفتا لفظاً في البيت الذي مر، وهو^(١٠):

وَسَبَّحَ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا

يعني الصلاة بالصباح والمساء^(١١). وقول أمية بن أبي الصلت من الشعراء المخضرمين^(١٢):

وَأَنِّي وَلَوْ سَبَّحْتُ بِاسْمِكَ رَبَّنَا لَأَكْثَرُ إِلَّا مَا غَفَرْتَ خَطَايَا^(١٣)

(١) ابن منظور، لسان العرب: (صلا)، وانظر القرطبي، تفسيره ١: ١٦٩، و ١٢: ٢٨٧.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: (سبح). يدل على ذلك قول ابن منظور - في المادة نفسها - يصف صوت الملائكة في دعائهم الله، الذي هو تسبيح في تعبيره: "وفي حديث الملائكة: لهم زجلٌ بالتسبيح أي صوتٌ رفيعٌ عال". وكذلك ما ذكره من معاني التسبيح: أن التسبيح يطلق على غيره من أنواع الذكر مجازاً كالتحميد والتمجيد وغيرهما". وطبيعي أن هذه الأنواع من الذكر لا تكون إلا بالدعاء.

(٣) أساس البلاغة: (سبح).

(٤) الصافات، الآية: ١٤٣.

(٥) لسان العرب: (سبح).

(٦) انظر آل عمران، الآية: ٤١، والبقرة، الآية: ٣٠، والروم، الآية: ١٧، والصافات، الآية: ١٤٣، وفصلت، الآية: ٣٨. وانظر القرطبي، تفسيره ١: ١٦٩، وابن منظور، لسان العرب: (سبح).

(٧) القرطبي، تفسيره ١٢: ٢٧٦.

(٨) كقولهم: فرغت من تسبيحي، أي من صلاتي. انظر الزجاج، معاني القرآن ١: ١١٠. وقولهم: قُضِيَتْ سُبُحَتِي. ابن منظور، لسان العرب: (سبح). وقولهم: فرغ فلان من سُبُحَتِهِ: أي من صلاته النافلة. المصدر السابق: (سبح).

(٩) كقولهم: سُبُحَةُ الضُّحَى: أي صلاة الضُّحَى. انظر القرطبي، تفسيره ١: ١٦٩.

(١٠) ابن منظور، لسان العرب، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (سبح)، ودبوانه: ١٣٧، وفيه "وصلَّ" بدل "وسبَّح". و"ولا تحمد الشيطان والله فاحمداً".

(١١) ابن منظور، لسان العرب، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس: (سبح).

(١٢) ديوانه: ٣٧١.

(١٣) سُبُحْتُ: صَلَّيْتُ. انظر السهيلي، أبو القاسم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٥٨١هـ)، الروض الألف (بهامش السيرة النبوية)، تعليق وضبطه عبد الرؤوف سعد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م، ١: ٢٥٩.

واستمرت هذه اللفظة تدل على المعنى نفسه في الإسلام في قول أبي قيس صيرمة بن أبي أنس^(١):
 سَبَّحُوا اللَّهَ شَرْقَ كُلِّ صَبَاحٍ طَلَعَتْ شَمْسُهُ وَكُلِّ هِلَالٍ
 وقد فهم العرب التسبيح بمعنى التنزيه سواء أكان في حق الله سبحانه وتعالى في تنزيهه من كل سوء وتبرئته منه^(٢)، كما في قول أمية بن أبي الصلت^(٣):
 فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْخَلْقَ قَدْرَهُ وَمَنْ هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ فَرْدٌ مُوَحَّدٌ
 أم كان في حق البشر^(٤)، كما في قول الأعشى يصف برامته من علقمة بن عامر ومن فخره^(٥):
 أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سُبْحَانَ مَنْ عَلَقَمَةُ الْفَاخِرِ
 وقول أمية بن أبي الصلت ينزه السيدة مريم عليها السلام عما تلام عليه^(٦):
 أَنَابَتْ لَوْجَهُ اللَّهِ ثُمَّ تَبَتَّلَتْ فَسَبَّحَ عَنْهَا لَوْمَةُ الْمُتَلَوِّمِ
 والتسبيح الذي يكون بمعنى تعظيم الله وتنزيهه من كل سوء أو نقص^(٧)، إنما يكون بالدعاء الذي هو الأصل فيه، وهو أصل عرفه العرب وورد في شعر شعرائهم^(٨)، وقالوا به في طوافهم حول الأصنام، كما في قول الربيع بن ضُبَيْع الفزاري يذكر طواف العرب حول الصنم أقيصر أنه تسبيح وتهليل^(٩):
 فَإِنِّي، وَالَّذِي نَعْمُ الْأَنَامُ لَهُ، حَوْلَ الْأَقْيَصِرِ تَسْبِيحٌ وَتَهْلِيلٌ
 على أن للعرب مصطلحاً آخر دللوا به على التسبيح هو "الهيئمة"^(١٠)، ذكره الشعراء في حالة الإحرام، كما في قول أوس بن حجر يذكر رجلاً قد أحرم فهو يقرأ ويسبح ويدعو ربّه^(١١):
 هَجَاؤُكَ إِلَّا أَنْ مَا كَانَ قَدْ مَضَى عَلَيَّ كَأَثْوَابِ الْحَرَامِ الْمُهْنِمِ

٥- الدعوة إلى الصلاة:

لم تذكر روايات الرواة العرب، ولم يتحدث الشعر الجاهلي عن شيء يدل على أن العربي الوثني كان يُنادى (يُذَعَى) لصلاته، اللهم إلا من احتمال ذهب إليه من أن تصفيق العرب في صلاتهم قد يكون لتنبيهه من يَفِدُ إلى مكة إلى ضرورة الصلاة في البيت، وهو احتمال يفتقر إلى الدليل التاريخي أو الأدبي الذي يؤكد أو ينفيه، على نحو ما نجد في صلاة أصحاب الديانات الأخرى، فقد ذكر الرواة أن المجوس كانوا يوقدون ناراً، وأن اليهود اتخذوا بوقاً^(١٢)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ١٥٧:٢، والسهيلي، الروض الألف ٢٨٧:٢. وهو في ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت: ٨٥، ويبدو أنه ليس له.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: (سبح)، وانظر رزور، معجم ألفاظ القيم الأخلاقية: ٢٠٧.

(٣) ديوانه: ١٧٨.

(٤) أو غيرهم، انظر حميد بن ثور، ديوانه: ٩٧.

(٥) ديوانه: ١٤٣.

(٦) ديوانه: ٢٩٠.

(٧) ابن منظور، لسان العرب: (سبح).

(٨) أمية بن أبي الصلت، ديوانه: ١٧٩، ٢٩١، ٣٣٣، وعدي بن زيد، ديوانه (ذيل الديوان): ١٥٠، وابن منظور، لسان العرب: (سبح)، والجبوري، المستشرقون والشعر الجاهلي: ١٠٨.

(٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢٨٣:١، وانظر ابن الكلبي، أبو المنذر، هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ)، الأصنام، تحقيق محمد عبد القادر أحمد وأحمد محمد عبيد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص: ٥٣، ورواه: "نعم".

(١٠) الهيئمة: الكلام الخفي لا يفهم، وقيل: الصوت الخفي، وهو شبه قراءة غير بيّنة، ووردت هذه الكلمة في الشعر بمعنى الدعاء لله. ابن منظور، لسان العرب: (هئم).

(١١) أوس بن حجر، ديوانه، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص: ١٢١.

(١٢) ويسمى الشُّبُور، ابن منظور، لسان العرب: (شبر).

مثل القرن فهم يجتمعون عند سماع صوته، واتخذ النصارى الناقوس فكانوا يضربونه لوقت صلاتهم^(١)، وفي ذلك يقول الأعشى يقسم برب الساجدين في العشيات، ورب راهب النصارى يدق الناقوس^(٢):

فإني ورب الساجدين عشيةً وما صكَّ ناقوس النصارى أبليها

الخاتمة:

حين ضلَّ العرب عن الديانة الإبراهيمية، وفقدوا الموجه الذي يوجههم إلى عبادة واحدة تجمعهم فيها دينياً هذه العقيدة؛ اختلفوا في أمور دينهم فلم تعد لهم شعائر واحدة، لعدم خضوعهم لدين واحد. وتعدَّ الصلاة إحدى الشعائر التي اختلفوا فيها، واختلفوا فيها لا يدل على وضوح شكل لها - أي شكل خاص بقبيلة من القبائل - تتضح فيه طريقة أدائها لها، فهو لا يدل على أكثر من أنهم كانوا يتخبطون فيها تخبط الناقة العشواء، وقد يكون للأسباب التي أدت إلى قلة الشعر الديني - الذي وصل إلينا من العصر الجاهلي، ومن ثمَّ عدم وضوح الحياة الدينية فيه بالشكل المطلوب - الدور الأكبر في تغييب صورة هذه الصلاة في الشعر وفي الأخبار؛ ولذلك عزم الباحثة على نفسه البحث في الصلاة الجاهلية، وحاول أن يرسم إطاراً لموضوعات بحثه يسير فيه - في ضوء الصعوبة التي ذكرها - بالانكفاء على معرفته بالصلاة وأفعالها ومستلزماتها في الإسلام، فقد تبيَّن له أن المفاهيم الدينية مثل الصلاة وما فيها من الركوع والسجود، وما تحتاج إليه من الوضوء والخشوع ومكان للصلاة ما زالت تحيا في وجدان العربي الجاهلي، ولم تندثر من معجمه اللغوي حين غابت عنهم حقيقة الصلاة الإبراهيمية، وإنما كان ذلك لحكمة اقتضتها ظروف الحياة لتهيئة العربي الجاهلي لتقبل المرحلة القادمة، حتى إذا جاء الإسلام جاء على أرضية صلبة، واضحة المعالم، راسخة الخطى، فعادت إليه المفاهيم الدينية، واجتمع شملها من جديد في الصلاة وما يتعلَّق بها.

وحتى يصل الباحث إلى غرضه من البحث قسَّم بحثه أقساماً أربعة، كان القسم الأول في الاشتقاق اللغوي للصلاة وفي معناها عند اللغويين والمفسرين، وكان القسم الثاني في أشكال الصلاة وأوقاتها، وكان القسم الثالث في دلالة المفاهيم الدينية (وهي الركوع والسجود) على الصلاة، أما القسم الرابع فكان في مستلزمات الصلاة. وقد أقاد القسم الأول الباحث في الاستدلال على استعمال الصلاة عند العرب في أصل وضعها اللغوي، في قول العلماء صلَّى بمعنى دعا، استدلالاً قاده إلى الحديث عن أشكال الصلاة، إذ تبيَّن له أن العربي الجاهلي خلط بين الصلاة مسمًى وبين وقتها، فلم تتضح لها صفة معينة، وهذه الأشكال هي: الصلاة دعاء، وصلاة الصبح، وصلاتنا الضحى والعشاء، وصلاتهم حول البيت مكاء وتصدية. وتدل أشكال الصلاة على أن العربي الجاهلي كان يصلِّي، وأنه كان يؤدي صلاته على هيئة ما، وأن هذا المصطلح ما يزال ماثلاً في ذاكرته، ويحيا في وجدانه، ويوظفه في حياته الدينية التوظيف الذي يفهمه هو، والدليل على ذلك حديث الباحث في القسم الثالث عن الركوع والسجود ودلالة هاتين اللفظتين على الصلاة، إذ لم يكن من العيب أن ينحني العربي الجاهلي في الركوع أو السجود وإن كان انحناؤه غير صلاة، أو ضلَّ عنه حقيقة استعمالهما. وحديثه في القسم الرابع عن مستلزمات الصلاة التي تدل على أن العربي كان يعرف ما يلزم الصلاة وإن لم يوظفه فيها، وهو: مكان الصلاة، والوضوء، والخشوع، والتسبيح.

إن البحث يكشف عن معلّم مهم من معالم الحياة الدينية، يمكن في ضوئه الحكم على تكوين أمة فيما إذا كانت متماسكة عقائدياً، وكانت تشكل في ذاتها قوة دينية، ومن ثمَّ قوة سياسية، أو كانت على عكس ذلك كلسه، ألا وهو الصلاة، ويأمل الباحث أن يكون وفق في الكشف عنها.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ١٥٤:٢ - ١٥٥، والبخاري، صحيحه ١٥٧:١ - ١٥٨.

(٢) ديوانه: ١٧٧.